مفاتيح السعادة

إلن ج. هوايت

مَفَاتيحُ السَّعَادة

إلِن ج. هوايت

© ٢٠١٩ الشرق الأوسط للنشر

الاسم الأصلي للكتاب هو «طريق الحياة» بقلم: إلن ج. هوايت

اقتباسات الكِتَاب المُقَدَّس مأخوذة مِن ترجمة فانديك

تنسيق الصفحات: ماريسا فيريرا وساره كالادو

جميع الحقوق محفوظة

١ - محبّة الله للإنسان

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بأن «الله محبة»، فأبونا السَّمَاوي هو مصدر الحياة ومنبع الحكمة والفرح. تأمل مثلاً جمال الطبيعة وعجائبها، ولاحظ ملاءمتها لجميع حاجات الإنسان والحيوان ولسعادة كلّ الكائنات الحية. فالشَّمْس والمطر اللذان ينعشان الأرض ويجددان وجهّها، والجبال والبحار، والسهول والأنهار التي تبهج الأبصار — كلها تحدثنا بمحبة صانعها الذي يرزق كلَّ حيٍّ في كل آنٍ ومكان. ولقد أنشد في ذلك المرنمُ قائلاً: «بِكَ تَتَعَلَّقُ أَعْيُنُ النَّاسِ رَاجِيَةً وَأَنْتَ تَرْزُقُهُمْ طَعَامَهُمْ فِي أَوَانِهِ. تَبْسُطُ يَدَكَ فَتُشْبِعُ رَغْبَةَ كُلِّ مَخْلُوق حَيٍّ» مزمور ١٤٥: ١٥ ، ١٦.

خلق اللهُ الإنسانَ باراً سعيداً، وصنع له الأرض الجميلة التي كانت خالية من كل لعنة عندما خرجت من يدي اللهِ بريئةً من كلِّ فساد. أما اللعنة والموت فقد جلبهما التعدّي على ناموس اللهِ — ناموس المحبة. غير أنّ الآلام التي أثمرتها الخطية لم تحل دون إظهارِ محبة الله، بل كما هو مكتوب، «مَلْعُونَةٌ الارْضُ بِسَبَبِكَ» تكوين ٣: ١٧ أي لأجلك.

فما الحسك والأشواك، متاعب الحياة وصعابها، التي تجعل حياة الإنسان حياة كد وتعب، ما هي إلا لخير الإنسان ووسائط يستخدمها اللهُ لرفعه من هُوّة الخطية وإنقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان العالم قد أضحى خاطئا أثيماً، ليس المعنى أنّ كل ما فيه محض شقاء وعناء. فالطبيعة لم تزل تحمل رسائل الرجاء والعزاء، إذ أنّ حسكها تعلوه الأزهار، وأشواكها تكسوها الورود.

إنّ آيات هذه المحبة لمسطورة على كلّ كمّ من أكمام الأزهار الفواحة العطر وعلى كلّ ورقة من أوراق الأشجار، وفي أناشيد البلابل وأغاريد العصافير التي تملأ الجو بشدوها — هذه جميعها تشهد لعناية اللهِ بنا وتعلن رغبته الأبوية في إسعادنا جميعاً.

غير أنّ إعلان الطبيعة مع ما فيها من آيات بينات لم يكن كافياً للإنسان لذلك أعطانا الله كلمته التي تظهر صفاته، فهو تعالى أعلن عن محبته اللامتناهية وشفقته. فعندما صلَّى موسى قائلاً لله «ارِنِي مَجْدَكَ» أجاب الله «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ» خروج ٣٣: ١٨ ، ١٩. فاجتاز الرَّبُّ قدام موسى ونادى قائلاً: «الرَّبُّ الهٌ رَحِيمٌ وَرَؤوفٌ بَطِيءُ

الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الاحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الاحْسَانِ الَى الُوفٍ. غَافِرُ الْاثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ» خروج ٣٤: ٦، ٧، ثم بقوله للنبي يونان، لأنه «بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ»، يونان ٤: ٢، وأيضاً للنبي ميخا «فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ» ميخا ٧: ١٨. إن هذا هو مجده تعالى.

وهكذا عمل الله على اجتذاب قلوبنا إليه بآيات لا تُحصى مما في السّماء وما على الأرض. فقد جرَّب أن يعلن ذاته لنا في الطبيعة وبانتسابه إلينا بأعزّ روابط القربى وأوثقها، وإن كانت هذه تمثّل محبّته تمثيلاً غَيْر تَامّ. وعلى رغم كل تلك الدلائل التي أعطانا، استطاع الشَّيْطانُ أن يعمي البصائر والأذهان وأن يجعل الناس ينظرون إلى الله نظرة تخوّف وتهيّب، وييْأَسُونَ من عفوه ورحمته، ويرون فيه إلهاً قاسياً لا يرحم ولا يشفق، يحصي على الناس زلاّتهم، ويرقب عوراتهم وسيئاتهم ويتربّص بهم الدوائر لكي يوقع بهم وينتقم منهم. فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، ولكي يعلن لنا محبة الله الفائقة الوصف، جاء يَسُوعُ من السَّماء وحَلَّ بين الناس.

أجل، من السَّماء جاء ابنُ الله ليعلن لنا الآب، لأنّ «أَللهُ

لم يَرَهُ أَحدٌ قطّ؛ أَلإِلهُ، الابْنُ الوحيدُ، الذي هُوَ في حِضْنِ الآبِ، هُوَ نفسُهُ قد أَخبَر» يوحنا ١: ١٨. «لاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الاِبْنُ وَمَنْ أَرَادَ الاِبْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ» متى ١١: ٢٧. وحين سأله أحد تلاميذه قائلاً: «يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا» أجاب يَسُوعُ «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآبَ» يوحنا ١٤: ٨ ، ٩.

لقد وصف يَسُوعُ رسالتَه ومهمّته على هذه الأرض فقال: «رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ» لوقا ٤: ١٨. هذا كان عمله، «جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ» أعمال ١٠: ٣٨. فكم من قرى عمّها البِرُّ والبُرْءُ، وكم من ضِياع نالت الشفاء والعافية لأنّ يَسُوعَ كان قد اجتاز في وسطِها، فشفى مرضاها وتحنن على صرعاها. فحيثما سار يَسُوعُ ابنُ الإنسان، سارت في ركابه المحبّةُ والرحمةُ والحنان، وكفى شاهداً على حبه وعطفه أنّه قد اتخذ طبيعتنا وصار مثلنَا في كلِّ شيءٍ ما عدا الخطية، مما شجّع

الخطاة المنبوذين على الدنوّ منه والتحدّث إليه، وجعل الصغار يلتفون حوله، ويأنسون به ويتفرسون في ما يبدو على محياه مِن علامات الجدّ والاهتمام، ودلائل الحبّ والإنعام.

لقد حرص يَسُوعُ على أن يعلن الحقَّ كله، دون أنْ يكتمَ منه شيئاً، أو يخشى فيه لومة لائم، ولكنه فعل ذلك دوماً بروح المحبة. وكان في مخالطته الناسَ يوليهم أكبر جانبٍ من عنايته واهتمامه ويراعي معهم كلّ ما تقتضيه واجباتُ اللياقة واللباقة. فما عامل أحداً بالغلظة قط، ولا تفوَّه بكلمة موجعة، ولا عمل على إيلام مخلوق بدون داعٍ أو موجب، ولا راقب زلات العباد وسقطاتهم. ومع ذلك فإنه لم يتردد قط في مكاشفة الناس بالحقيقة في صراحة وشجاعة منذراً إياهم في ترفّق ووداعة.

فقد نعى على الناس نفاقهم، ودان عدم إيمانهم وآثامهم، ولكنّه كان دائماً يمزج تحذيراته وتوبيخاته بدموعه وعبراته. ومن ذلك أنّه بكى على أورشليم المدينة التي أحبها، مع أنها لم تقبله، وهو الطريق والحق والحياة. ولقد عامل قومه بكلِّ رفقٍ وحنانٍ مع أنهم

رفضوه، فرفضوا بذلك عونهم وخلاصَهم. اتسمت حياته بنكران الذات والرعاية المضحية للآخرين. وكان، مع ما له مِن العزة الرّبانية والكرامة الإلهية، ينظر إلى كلِّ مخلوق ينتمى الى أسرة الله بعين الإكبار والاعتبار، لأن كل نفس من نفوس العباد كانت حبيبة إليه عزيزة عليه. بل كان يتطلع هو إلى كل إنسان فيرى فيه نفساً ثمينة قد وُكِل إليه من السَّمَاء أمرٌ تخليصها وإنقاذها.

تلك هي صفات الْمَسِيحِ كما تجلّت في حياته، وهي بعينها صفات الآب تعالى، فإنّه من قلب الله تدفقت جداول المراحم الإلهية لبني البشر بواسطة الْمَسِيحِ، فيَسُوعُ الرؤوف العطوف، إنمّا هو «اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ» ١تيموثاوس ٣: ١٦.

ولئن كان يَسُوعُ قد عاش وتألمّ ومات، وصار رجل أوجاع ومختبر الحزَن فما ذلك كله إلاّ لكي يفتدينا ويجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. وهكذا سمح الله تعالى بأن ينزل ابنه الحبيب، مملوءاً نعمة وحقاً، من عالم المجد الفائق إلى عالم ملوّث بالإثم، وموبوء بالخطية، إلى أرض قد غطَّاها

سواد الموت، وغشتها أشواك اللعنة. بل هكذا سمح الله لابنه الوحيد بأن يترك أحضان المحبة الأبوية، وما يحفّ به من العبادات الملائكية، لكي يأتي إلى بني البشر حيث هم، محتملاً منهم العار والهوان، والكراهية والنكران. وفي النهاية مات ميتة المذنبين المجرمين، لأن «تَأْدِيب سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا» إشعياء ٥٣: ٥.

تطلع إليه وهو في جثسيماني، وهو على الصَّلِيب. فهذا ابنُ الله القُدُّوس، الذي لم يعمل ظلماً. ولم يكن في فمه غش، قد ناءت كاهلاه تحت أعباء اللعنة وأثقال الخطية. ثم انظر إليه ثانية، فترى ابن الله الذي كان في اتحاد تام مع الآب وقد أصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، والهوّة السحيقة التي تفصل الإنسان الخاطيء عن الله، مما جعله يصرخ صرخة متألم متوجّع قائلاً: «إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي» متى ٢٧: ٤٦. إنَّ شعوره بفداحة عبء الخطية، وإدراكه لهول جرمها، وإحساسه بانفصام عرى الشركة بين النَّفْس واللَّه كانت هي الأمور التي عملت على سحق قلب ابن اللَّهِ الحبيب.

على أنّ هذه التضحيةَ العظمى لم يأتها الابنُ ليخلق في

قلبِ الآبِ محبّة للإنسان، ولم يقصد بها أن يجعل عند الآبِ الرغبةَ في العمل على خلاص الإنسان. كلاّ، «لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الوحيد» يوحنا ٣: ١٦. فالكفارة. إذن، لم تكن هي علّة المحبّة التي أحبنا بها الآب، وإنما الآب أحبنا فأعدَّ لنا الكفارة، وكان الْمَسِيحُ هو الواسطة التي بها سكبَ اللَّهُ محّبتَه على عـالم قد ضـلّ وهوى، إذ «إِنَّ اللَّه كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحاً الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ»، ٢كورنثوس ٥: ١٩. ففي الآلام التي جاز فيها في بستان جثسيماني، وعلى صليب العار في جلجثة، تألم الآب مع ابنه، ودفعت المحبة ثمن فدائنا غالياً.

وليس أدلّ على محبة الآب لنا مما نطق به يَسُوعُ نفسه في قوله: «لِهَذَا يُحِبُّنِي الآبُ لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِآخُذَهَا أَيْضاً» يوحنا ١٠: ١٧. فكأني به يقول: لقد أحبكم أبي للدرجة التي زادت محبته لي وتقديره إياي لكوني قد بذلت حياتي لأفتديكم طائعاً مختاراً. ورضيت بأن أكون بديلكم وكفيلكم بتسليم حياتي، حاملاً ذنوبكم وموفياً ديونكم. لأنه بفضل ذبيحتي الفدائية، وأعمالي الكفارية، أمكن اللهُ تعالى أن «يَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ»

رومية ٣: ٢٦.

لم يستطع أن يفدينا غير ابن اللهِ، إذ لم يقدر أن يعلن الله غير الذي كان في حضنه، الذي وحده استطاع أن يظهر محبته لأنه عاش عمقها وبلغ ذراها. لا شيء أقل من، الذبيحة اللامتناهية التي قام بها الْمَسِيحُ لأجلنا، يمكن أن تُعبِّر عن محبة الآب للبشرية الهالكة.

«لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ» يوحنا ٣: ١٦. وقد بذله، لا لكي يعيش بين البشر، ويحمل خطاياهم، ويموت ذبيحة عنهم، فحسب، بل وهبه للجنس البشري هبةً، فصارت شؤونهم شؤونه، وحاجاتهم حاجاته. فالذي هو واحد مع الآب ارتبط بالبشرية ارتباطاً وثيقاً جداً، فهو «لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِخْوَةً» عبرانيين ٢: ١١. لأنّه هو ذبيحتُنا، بل شفيعُنا بل أخونا، يحمل صورتَنا كابن الإنسان وهو على عرش الآب. فهو إلى الأبد واحد مع الجنس الذي فداه بدمه. وقد صار ذلك كلَّه لأجل رفع الإنسان من هُوّة الخطية وخرابها إلى الاشتراك في فرح القداسة وإلى إعلان محبة الله للعالمين.

إنّ ثمن فدائنا الذي دُفِع، أي تضحية أبينا السَّمَاوي

اللامحدودة في بذل ابنه ليموت لأجلنا، يجب أن يمنحنا إدراكا أسمى لما قد نصبح عليه في الْمَسِيحِ. فالرسول الملهم، يوحنا الحبيب، إذ أدرك شيئاً من علو محبة الله وعمقها وعرضها، امتلأ بالهيبة والوقار وعجز عن إيجاد كلمات بها يعبِّر عن عظمة هذه المحبة لجنس هالك. فدعا الجميع للتأمل فيها قائلاً: «أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ» ١يوحنا ٣: ١. فما أعظم مقام الإنسان نتيجة لهذا الفداء. فبنو الإنسان الذين قد صاروا بالمعصية رعايا إبليس، يصيرون بالإيمان بذبيحة الْمَسِيحِ الكفارية أبناء الله. بتجسّده رفع يَسُوعُ شأن البشرية وجعل الخطاة الهالكين في مركز يستحقون فيه اللّقب السَّامي العظيم «أولاد الله».

إنَّ هذه المحبة منقطعة النظير، أن نكون أولاداً لملك السَّمَاء. إنه لوعد ثمين وعهد كريم، وموضوع يستحق التأمل العميق – موضوع محبّة الله القدير لعالم لم يحبه. إنّ لهذه الفكرة، إذا استغرق المرء فيها، قوة على إخضاع النَّفْس، وقدرة على استئسار الذهن لإرادة الله، لأنّ التأمل في صفات الله، في ضوء الصَّلِيب، ليعلن لنا الرحمة

والشفقة والمغفرة، متحدة بالعدالة والبرِّ والقداسة، وليجلو لنا آثار حبّ لا حدّ له، يفوق محبّة الأم وحنانها على ولدها التائه الشريد.

٢ - حَاجتُنا إلى الْمَسِيحِ

لقد خَصَّ اللهُ الإنسانَ، حين خلقه، بقوى سامية وعقلية متزنة، فكانت حياته حياة الكمال والتوافق مع اللهِ. وكانت أفكاره طاهرة، وأغراضه مُقدَّسة. ولكنه ما لبث أن عصى ربَّه وخالف أمره. فحلت فيه الأنانية بدلاً من حُبّ الغَيْر والتضحية من أجلهم، وبات ضعيفاً عاجزاً لا يقوى على مقاومة سلطان الخطية وتأثيرها بجهوده الذاتية وقوته الشّخصية. لقد أسره الشَّيْطانُ، ولولا أنّ اللهَ تعالى لطف بالإنسان وتدخّل في أمره، لأبقاه الشَّيْطانُ أبد الدهر في قبضته وأسره، كان قصْد المجرّب أن يعطل تدبيرات اللهِ، ويحول دون تحقيق مقاصده السامية بشأن الإنسان فيملأ الأرض مرارة وحزناً، ويجعلها قفراً وخراباً. حتى إذا تمّ له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير والشرّ المستطير إلى اللهِ تعالى، لأنه خلق الإنسان وخصَّه بمثل هذا الكيان والوجدان.

فالإنسان في براءته كان يتصل اتصالاً بهجاً «بِالْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ» كولوسي ٢: ٣. أما وقد أخطأ

فلم يعُدْ يرى في الطهارة لذةً وسروراً أو في محادثة ربّه فرحاً وحبوراً، بل حاول أن يتوارى ويختبيء من حضرة اللهِ. وهذه حالة كلّ إنسان لم يتجدد بعد إذ إنه لا يكون في حالة وئام مع اللهِ، ولا يشعر بفرح في الاتصال به والتحدّث إليه. فالخاطئ لا يمكنه أن يكون سعيداً وهو في حضرة اللهِ كما أنه ينفر من معاشرة ساكني السَّمَاء. فلو أُتيح له أن يدخل السَّمَاء، لما بعث ذلك فرحاً في نفسه، لأن نفسه لا تسرّ بروح محبة الغير التي تسود سكان السَّمَاء، وقلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى. فضلاً عن أنّ اهتمامه، وأفكاره، ودوافعه، تبدو غريبة ومناقضة لبواعث أولئك الأبرار الأطهار. فهو إذن يكون كنغمةٍ ناشزةٍ في لحن السَّمَاء، بل تكون السَّمَاء له مكان ألمٍ وتعذيب حتى ليودَّ أن يختبئ من ذاك الذي هو مصدر نورها ومبعث بهجتها وحبورها. فليس حرمان الأشرار من دخول السَّمَاء أمراً مقضياً به من اللهِ، بل عدم صلاحيتهم لها هو الذي يحول دون دخولهم إليها، إذ إنّ مجد اللهِ يكون لهم نَاراً آكلة، حتى أنهم ليلتمسون الهلاك التماساً توارياً من وجه ذاك الذي مات لكي يفتديهم.

إنه ليستحيل علينا أن ننقذ أنفسنا من هوة الخطية التي تردّينا فيها. فقلوبنا شريرة وليس في استطاعتنا أن نغيّر ما بها، كما يصف ذلك أيوب في قوله: «مَنْ يُخْرِجُ الطَّاهِرَ مِنَ النَّجِسِ؟ لاَ أَحَدٌ». أيوب ١٤: ٤. وكقول الرسول بولس: «لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعاً لِنَامُوسِ اللهِ لأَنَّهُ أَيْضاً لاَ يَسْتَطِيع» رومية ٧: ٨. أما وسائل التربية والتعليم، والتهذيب والتثقيف، وتدريب الإرادة، وما إلى ذلك من الجهود البشرية التي تُبذل في سبيل ترقية الإنسان، فهذه كلّها لها قيمتها ومكانتها في نواح أخرى من الحياة، لكنّها في هذا الموضوع بالذات عديمة الجدوى. فهي قد تكون ذات تأثير في تحسين سلوك الإنسان وصقله من الخارج، ولكنّها لن تقوى على تغيير قلبه وتطهير بواعثه وأفكاره. لأن الانتقال من حياة الخطية والرذيلة، إلى حياة القداسة والفضيلة، يستلزمُ حتما قوّةً تعمل على تغيير الإنسان من الداخل. ويقتضي حياةً جديدةً يؤتاها الإنسانُ من فوق. وهذه القوة هي الْمَسِيحُ، فإنّ نعمتَه وحدها هي التي تُحيي النَّفْسَ المائتة، وتجتذبها نحو اللهِ، وتستميلها إلى حياة القداسة والكمال.

وقد قال المخلِّص: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ»، أي أنّه ما لم يحصل الإنسانُ الخاطئ على تجـديدٍ في قلبه وأفكاره، ورغـائبه وبواعثه صوب حياة جديدة، فانه «لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ» يوحنا ٣: ٣. فالفكرة في أنّ الحاجةَ الوحيدة إنما هي إلى تنمية التقوى الفطرية والصلاحّ الطبيعي الكامنين في نفوسِنا، إنْ هي إلاّ خدعة مميتة، لأن «الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ اللهِ لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَهُ لأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْكَمُ فِيهِ رُوحِيّاً» ١كورنثوس ٢: ١٤. «لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ» يوحنا ٣: ٧. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الْمَسِيحَ وحده هو المكتوب عنه «فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ» يوحنا ١: ٤. وأيضاً «لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ. لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ» أعمال ٤: ١٢.

فلا يكفي أن نشعر برحمة اللهِ، وندرك ما تنطوي عليه صفاته من الجود والحنو الأبوي. ولا يكفي أن ندرك حكمة الناموس وعدالته، وندرك أنّه قائم على مبدأ المحبة الأبدي. فبولس الرسول، كان مدركاً لهذه كلّها حين قال:

«فَإِنِّي أُصَادِقُ النَّامُوسَ أَنَّهُ حَسَنٌ» رومية ٧: ١٦، وأنه «مُقَدَّسٌ وَالْوَصِيَّةُ مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ» رومية ٧: ١٢. ولكنّه مضى يقـول أيضاً وهو في مرارة الألم واليأس «أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية» رومية ٧: ١٤. كان بولس الرسول يتوق إلى البرّ والطهارة. ولكنه كان عاجـزاً في نفسه عن بلوغهما، مما جعله يصرخ قائلاً: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ. مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ» رومية ٧: ٢٤. ولقد ردد مثل هذه الصرخة، في كلّ الأزمنة والعصور كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، ولم يكن لهم من جوابٍ سوى ما جاء عنه: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ» يوحنا ١: ٢٩.

كثيرة هي الصّور والرموز التي بها التمس روح اللهِ تمثيل هذه الحقيقة لتكون واضحة جلية لكلِّ من يتوق إلى التحرر من عبءِ الخطية. ومن تلك الصور ما أعلنه اللهُ ليعقوبَ حين هرب من بيت أبيه على إثر مخادعته لأخيه عيسو. فقد كان يعقوب يعاني من الشعور بالذنب والإثم، حتى أنّ تخوُّفَهُ من خطيته طغى على كل ما كان يشعر به من الفراق والبعاد، والحرمان والانفراد. وكان جلّ ما يخشاه أن

تؤدي خطيتُه إلى فصله عن اللهِ، وإقصائِه عن السّماء. وبينما هو على هذه الحالة من الحزن والكآبة استلقى، مفترشاً الغبراء، وملتحفاً بالعراء، ولم يكن حوله سوى تلال موحشةٍ جرداء. ولما نام طرق عينيه نور غريب، فإذا منظر سلمَّ متسع، بدا له من السَّهل الذي كان مضطجعا فيه، وكان السلم متجهاً إلى فوق، ومؤدياً إلى باب السّماء، وعلى درجاته يصعد ملائكة اللهِ وينزلون. ومن المجد الأسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء والرجاء، ويعلن ليعقوبَ ما كان يصبو إليه قلبُه، أي أنه تعالى يكون له حافظاً ومُخلِّصاً. ففي غمرة الفرح والشكر تجلَّى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطيء، أن يستردَّ اتصاله باللهِ، إذ إنَّ السّلم الذي ظهر له في الحلم، إنّما يُمثِّل الْمَسِيحَ، الوسيط الوحيد، بين اللهِ والإنسان.

وإلى هذا الرمز عينه أشار الْمَسِيحُ في حديثه مع نثنائيل إذ قال: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَملاَئِكَةَ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ» يوحنا ١: ٥١. فإنَّ الإنسان إذ عصى اللهَ وارتد عنه، فقد أقصى نفسه عن حضرة اللهِ، فانفصلت بذلك الأرض عن

السَّمَاء، وصارت بينهما هوة لم يستطع أحد عبورَها. ولكن بواسطة الْمَسِيحِ، وبفضل استحقاقاتِه، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، وأعيدت حلقة الاتصال بين الأرض والسّماء. فتسنّى للملائكة بذلك أن يتخاطبوا مع البشر ويكونوا في خدمتهم. فبالْمَسِيحِ إذاً وبه وحده يمكن للإنسانِ الضعيفِ العاجزِ ان يجدد اتصالَه بمصدرِ القوة التي لا تُحدّ.

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدّم والنجاح، ومن الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مصُرّين على تجاهل ذلك المصدر الأعلى، الذي يجب أن تستمد منه البشرية الصريعة كلّ معونةٍ ورجاء. لأن «كُلّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» يعقوب ١: ١٧، ومن العبث أيضاً أن يحاول الإنسان التحلّي بمكارم الأخلاق وهو بعيد عن الْمَسِيحِ، لأنّه ليس من سبيل للوصول إلى اللهِ إلا بواسطةِ ذاك الذي قال عن نفسه: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» يوحنا ١٤: ٦.

فقلب اللهِ تعالى توَّاق إلى أولاده على الأرض لأنه يكنّ لهم حباً أقوى من الموت. وكفانا آية على هذا الحب العجيب، أنّ اللهَ قد جمع كلَّ بَرَكَاتِ السَّمَاء ومزاياها في عطية واحدة ألا وهي عطيةُ الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يُعبّر عنها. فما حياته وموته وشفاعته، وما خدمة الملائكة، وشفاعة الروح، وما الآب العامل فوق الكل وفي الكل، وما المخلوقات الروحية وهي في شغلٍ شاغل، ما هذه إلاّ قِوى معبأة، ووسائل مهيَّأة لخلاص الإنسان خلاصاً أبدياً.

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي بُذلت في سبيل خلاصِنا. ولنقدّر كلّ ما جادت به السَّمَاءُ، من جهد وعناء، في سبيلِ إنقاذ الهالكين واسترجاع الضالين إلى حظيرة الآب السَّمَاوي. فإنّه ما مِن شيء يَخلقُ فينا بواعثَ قويةً، وحوافزَ شديدةً، مثل التأمل في تضحية الْمَسِيحِ. فهلاّ يحفزنا لخِدمةِ سيدِنا ومخلّصِنا ما أعدّه من أجرٍ وثوابٍ لمَن يفعلون الصلاح، وهلاّ تستهوينا تلك الأفراح السَّمَاوية وعِشرة الملائكة وشركة ومحبة الآب والابن؟ أَمْ نطلب حياة الرفعة والتسامي، ونرغب في ازدياد قوانا ومواهبنا، واتساع معارفنا ومداركنا مدى أجيال الأبدية؟ أو ليست هذه كلّها

مما يستحثنا على أن نقدّم لخالقِنا وفادينا خدمة المحبة القلبية؟

ومن جهة أخرى فإنّ دينونة اللهِ على الخطـية وقصـاصها المحـتوم، وانحطاطنا الخُلُقي، والهلاك الأبدي، كلها مقدمة لنا في كلمة اللهِ لتحذرنا من خدمة الشَّيْطانِ.

أفلا نقدّر رحمة اللهِ؟ وأي شيء كان ممكنا أن يعمله أكثر مما فعل؟ فلنسع إذن إلى تصحيح موقفنا بالنسبة للذي أحبنا حبّاً فائقاً عجيباً، ولننتفع بالوسائط المقدمة لنا، حتى نتغيّر إلى شبهه، ونعاد إلى عِشرة الملائكة الخادمين ونصير في وئام وشركةٍ مع الآب والابن والرُّوح الْقُدُس.

٣ - التحرّر مِن الشّعور بالذنب

كيف يتبرر الإنسانُ عند اللهِ؟ وكيف يتزكّى المذنب؟ إنما بالْمَسِيحِ وحده نصير في وفاقٍ مع اللهِ، واتّساق مع القداسة. ولكن كيف يتسنّى لنا أن نأتي إلى الْمَسِيحِ؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سأله الجمهور في يوم الخمسين إذ «نُخسوا في قلوبهم»، فصرخوا قائلين: «ماذا نصنع؟» أعمال ٢: ٣٧. وأول كلمة أجاب بها الرسول بطرس كانت قوله «توبوا» أعمال ٢: ٣٨. وما لبث بعد ذلك أن قال في موضع آخر: «تُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ» أعمال ٣: ١٩.

أما التوبة فهي الحزن على الخطية والإقلاع عنها. ولا يقلع عنها المرءُ ما لم يتبيّن شرَّها. ولا يصير تغيير في الحياة ما لم يرجع عنها رجوعاً باتاً.

غيرَ أنّ الكثيرين يخطئون فهم كُنْه التوبة. فمنهم من يحزن لأنه أخطأ، بل ويحاول إصلاح سيرته إصلاحاً خارجياً، لأنّه إنما يخشى أنّ خطيته قد تجلب عليه خسارة وألماً. ولكنّه بذلك لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنه إنما يندب

الآلام لا الخطية. فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بَرَكَاتِها إلى الأبد. وحاله حال بلعام الذي أقر بذنبه، خوفا على حياته حين رأى الملاك يعترض طريقه والسيف السليل بيده. ولكنّه لم يتب عن الخطية ولم يبغض شرّها، لأنّه لم يغير قصده واتجاهه. وهكذا يهوذا الاسخريوطي، فبعد أن أسلم سيدّه اعترف قائلاً: «أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا» متى ٢٧: ٤. فالذي أجبره على الاعتراف هو شعوره بالإدانة وانتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بدّ من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسه رعباً وقشعريرةً. وأما الحزن العميق على إنكاره ابن اللهِ البار، والأسف الشديد على خيانته قدوس إسرائيل، فكانت نفسه بريئة منهما. وفرعون كان كلّما حلّت به ضربة من الضربات يصرخ معترفا بخطئه لكي يُجنّب نفسه المزيد من العقاب حتّى إذا ما استجاب اللهُ لصراخه ودعائه عاد إلى عناده وكبريائه، فهؤلاء جميعهم لم يحزنوا على الخطية ذاتها بل خوفا من عواقبها المؤلمة.

ولكن عندما يستسلم الإنسان لتأثير الرُّوح الْقُدُس يحيا الضمير، فيأخذ الخاطئ يدرك شيئاً من عمق الناموس

وقدسية الشريعة التي هي قاعدة حكم اللهِ في السَّمَاء وعلى الأرض. ويشرق في نفسه «النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ» يوحنا ١: ٩ خارقاً إلى الأعماق وكاشفاً خفايا القلب، فيمتلك فكر الخاطئ الشعور بالتبكيت والإدانة. ثم يرى برَّ اللهِ فيعتريه الرعبُ من الظهور بذنبه ونجاسةِ قلبه أمام فاحص القلوب ومختبر الكلى. ثم يرى أيضا محبة اللهِ، وجمال القداسة، وبهجة الطهارة، فيتوق إلى التطهير وإلى استعادة صلته بالسَّمَاء.

إنَّ الصَّلاة التي صلاها داود إثر سقطتِه لتصوّر لنا الحزن الحقيقي على الخطية. فقد كانت توبته خالصة وعميقة، إذ لم تبد منه أية محاولة لتلطيف جُرمه أو لاستصغار ذنبه. ولم تكن الرغبة في النجاة من الدينونة التي تتوعده هي التي أوحت إليه بالصَّلاة التي رفعها. ولكن داود كان قد أدرك فداحة تعدّيه، وتبين له ما في نفسه من دنس ونجاسة، فأبغض الخطية وكرهها، حتى أنه، حين صلى، لم يلتمس فقط الحصول على الغفران بل طلب أيضاً طهارة القلب. فقد كان مشتاقاً إلى بهجة القداسة، توَّاقاً إلى استعادة صلته باللهِ، كما عبّر عن ذلك بقوله: «طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ

وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ. طُوبَى لِرَجُل لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً، وَلاَ فِي رُوحِهِ غِشٌّ» مزمور ٣٢: ١ و ٢.

«ارْحَمْنِي يَا اَللهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ. حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ امْحُ مَعَاصِيَّ. اغْسِلْنِي كَثِيرًا مِنْ إِثْمِي، وَمِنْ خَطِيَّتِي طَهِّرْنِي. لأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيَّ، وَخَطِيَّتِي أَمَامِي دَائِمًا. ... طَهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ. اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ ... قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي. لاَ تَطْرَحْنِي مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ، وَرُوحَكَ الْقُدُّوسَ لاَ تَنْزِعْهُ مِنِّي. رُدَّ لِي بَهْجَةَ خَلاَصِكَ، وَبِرُوحٍ مُنْتَدِبَةٍ اعْضُدْنِي» مزمور ٥١: ١ -٣ و ٧ و ١٠ - ١٢.

«نجِّنِي مِنَ الدِّمَاءِ يَا اَللهُ، إِلهَ خَلاَصِي، فَيُسَبِّحَ لِسَانِي» مزمور ٥١: ١٤.

فمثل هذه التوبة ليست في مقدورنا. إنها فوق طاقتنا، وإنما نؤتاها من الْمَسِيحِ الذي إذ «صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْياً وَأَعْطَى النَّاسَ عَطَايَا» أفسس ٤: ٨.

يخطيء كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التي يريدها لهم الْمَسِيحُ، إذ يظنّون أنه ليس في إمكانهم أن يأتوا إليه إلا إذا تابوا أولاً، وأنّ التوبة هي

التي تعدّ لهم السبيل للحصول على الغفران. نعم، إنّ التوبة تسبق الغفران، لأنّه لا يشعر بحاجته إلى مُخلّص إلا كلّ ذي قلب منكسر وروح منسحقة. ولكن هل معنى ذلك أنّه يجب على الخاطئ ألا يأتي إلى الْمَسِيحِ حتى يتوب أولاً؟ وهل نجعل من التوبة عقبة تحول دون وصول الخاطئ إلى مُخلّصه؟

إنّ الكِتَاب المُقَدَّس لا يُعلِّم أنّ الخاطئ يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعـوة التي يناشـدنا بها الْمَسِيحُ قائلاً: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» متى ١١: ٢٨. إنّ القوة التي تقودنا إلى التوبة الحقيقية إنما هي قوة من الْمَسِيحِ، كما أوضح ذلك الرسول بطرس للإسرائيليين في قوله: «هَذَا رَفَّعَهُ اللهُ بِيَمِينِهِ رَئِيساً وَمُخَلِّصاً لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا» أعمال ٥: ٣١. فكما أننا بدون الرُّوح الْقُدُس، الذي يُحيي الضمير، لا نستطيع التوبة، كذلك أيضاً لا يُمكننا الحصول على الغفران بدون الْمَسِيحِ.

إنّ الْمَسِيحَ هو مصدر كل باعث حقٍ، وهو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكلّ رغبةٍ تتوّلد فينا

نحو الحق والطهارة، وكلّ اقتناع بشعورنا بالذنب، إنما هو دليل على أنّ روحه يعمل فينا.

لقد قال الْمَسِيحُ: «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» يوحنا ١٢: ٣٢. فيجب أن يُعلَن الْمَسِيحُ للخاطئ مُخَلِّصَاً يموت عن خطية العالم لأننا، إذ نراه، حمل اللّهِ، مرفوعاً على صليب جلجثة، نأخذ ندرك شيئاً من سرّ الفداء، فيقتادنا لطف اللهِ إلى التوبة. فالْمَسِيحُ بموته عن الخطاة أماط اللثام عن حبّ يفوق الوصف والإدراك، وكلما تأمّل الخاطئ في هذا الحب لانَ قلبُه، وذابت روحُه وانسحقت نفسه فيه.

ويحدث أنّ الناس يستهجنون شرّ أعمالهم، فيقلعون عن بعض عاداتهم السيئة قبل أن يدركوا أنهم إنما ينجذبون إلى الْمَسِيحِ. ، ولكن الحقيقة هي أنّ كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ما هو حق وصواب إنّما هو قوة الْمَسِيحِ التي تجتذبهم إليه، إذ يستحثّ قلوبهم، من حيث لا يشعرون، فتحيا ضمائرهم، وتتغير حياتهم. وإذ يستميلهم الْمَسِيحُ ليلتفتوا إلى الصَّلِيب ويروه معلّقاً هناك مطعوناً بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم،

فيتجلّى لهم شرّ حياتهم، وتنكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم. وإذ يدركون شيئاً من بِرّ الْمَسِيحِ وكماله يصيحون قائلين: «ما هي الخطية حتى يستلزم فداء فرائسها كل هذه التضحية؟ وهل يتطلّب الأمر كلّ هذه المحبّة وكل هذا الاتضاع وكل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟»

وقد يقاوم الخاطئ هذه المحبة، وقد يرفض أن ينقاد إلى يَسُوعَ. ولكنّه إذا لم يقاوم فإنه لا بدّ من أن ينجذب إليه، إذ أنّ معرفة تدبير الخلاص تقوده إلى الصَّلِيب فيأتي إليه نادماً على خطاياه التي سببت كلّ هذه الآلام لابن اللهِ الحبيب.

إنّ القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تتحدث إلى قلوب الناس وتخلق فيهم شوقاً وهياماً إلى ما يفتقرون إليه وما لا يستطيع العالم أن يمدّهم به. وروح اللهِ هو الذي يتوسّل إليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام والراحة، أي نعمة الْمَسِيحِ وبهجة القداسة. فبتأثيرات مرئية، وغير مرئية يسعى مخلصنا دائماً إلى استمالةِ عقولِ الناسِ من ملذّات الخطية التي لا تُشبع

النَّفْسَ إلى البَرَكَات الثمينة التّي ينالونها فيه. فإلى كل مَن يلتمس عبثاً أن يرتوي من آبار العـالم المشـققة، يوجّه اللهُ دعوتَه قائلاً: «وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّاناً» رؤيا ٢٢: ١٧.

فأنتم يا من تتوق قلوبكم إلى ما هو أفضل وأسمى مما يعطيكم إياه العالم، اعلموا أنّ شوقكم هذا هو صوت اللهِ لضمائركم. واطلبوا إليه أن يمنحكم التوبة، ويعلن لكم الْمَسِيحَ في محبته الفائقة الوصف، وطهارته الكاملة. ففي حياته قد تمثّلت المبادئ التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، أعني المحبة لله والمحبة للإنسان. فالمحبة والرحمة كانتا جوهر حياة يَسُوعَ، حتى إننا إذ نراه ويُشرق نوره علينا نتيقن من نجاسة قلوبنا.

قد يكون أنّنا تملّقنا أنفسنا، كما فعل نيقوديموس، فنظن أنّ حياتَنا مستقيمة، وأنّ أخلاقنا قويمة فلا نحتاج إلى أن نتذلل أمام اللهِ تذلل أحد عامة الخطاة. ولكن متى أشرق في قلوبنا نور الْمَسِيحِ ظهر لنا مدى نجاستنا وأثرتنا وعداوتنا لله. وعندئذ نعرف أَنّ كلّ أعمالِنا ملوّثة بل أنّ أعمال برّنا كثوبِ عدّة، وأنّ دم الْمَسِيحِ وحده كفيل بتطهيرنا من

نجاسة الخطية وبتجديد قلوبنا لكي نكون مشابهين لصورته.

فإنّ النَّفْسَ إذ يتخللها شعاع يسير من مجد اللهِ، وقبس ضئيل من طهارة الْمَسِيحِ، يتضح لها في ألم ما بها من حَمَاقَة ودنس، وتنكشف لها نقائص الصفات البشرية واعوجاجها، وتتبين ما هي عليه من فساد في الميول وجحود في القلب ونجاسة الشفاه. وهكذا يعرض أمام عيني الخاطئ ما قد قام به من أعمال الخيانة، بنقضه ناموس اللهِ، وتعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة ألم وانسحاق تحت تأثير روح اللهِ الفاحص القلوب. وإذ تتجلى صفات الْمَسِيحِ الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطئ فإنه يمقت نفسه ويكرهها.

إنّ دانيال حين رأى الرسول السَّمَاوي، وشهد ما حفّه من المجد والبهاء، بدأ يتملّكه شعور قوي وإحساس جارف بنقصه وضعفه. وقد وصف هذا المنظر العجيب فقال: «وَلَمْ تَبْقَ فِيَّ قُوَّةٌ وَنَضَارَتِي تَحَوَّلَتْ فِيَّ إِلَى فَسَادٍ وَلَمْ أَضْبِطْ قُوَّةً» دانيال ١٠: ٨. إن النَّفْس التي يمسّها الروح على هذا النحو لا بدّ من أنها تكره الأنانية، وتعاف محبة الذات،

وتنشدُ، بواسطة بِرّ الْمَسِيحِ، حياةَ الطهارة التي تنسجم وشريعةَ اللهِ، وتتفق مع صفات الْمَسِيحِ وسجاياه.

ويصف الرسـول بولس أعماله الظاهرية وحماسه لتطبيقها مقارنة بالناموس، بهذه الكلمات: «مِنْ جِهَةِ الْحَمَاسَةِ، مُضْطَهِدٌ لِلْكَنِيسَةِ؛ وَمِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الْمَطْلُوبِ فِي الشَّرِيعَةِ، كُنْتُ بِلاَ لَوْمٍ» فيلبي ٣: ٦. ولكنّه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئاً، فهو إذ طابق حرفية الناموس على حياته كما يطبقها الناس على حياتهم الخارجية، رأى نفسَه بلا لوم. ولكنّه حينما تأمّل في عمق الشريعة المقدّسة ورأى نفسَه كما رآه اللهُ، انحنى خجلاً واتضاعاً واعترف بإثمه وذنبه قائلاً: «أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بِدُونِ النَّامُوسِ عَائِشاً قَبْلاً. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَتِ الْوَصِيَّةُ عَاشَتِ الْخَطِيَّةُ فَمُتُّ أَنَا» رومية ٧: ٩. وهكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية وبشاعتها، وفارقه كل ما كان في نفسه من زهو وافتخار.

يرى اللهُ تعالى الذنوب تتفاوت في جسامتها، فهناك درجات من الإثم في تقديره كما في تقدير البشر أيضاً. ولكن مهما كان هذا الخطأ أَمْ ذاك يبدو ثانوياً في أعين البشر فلا

توجد خطية ثانوية في نظر اللهِ. فحكم الإنسان ناقص وجزئي ولكن اللهَ يقدّر الأشياء كما هي على حقيقتها. فالنَّاس يحتقرون السّكير مثلاً وينذرونه بسوء العاقبة والمصير، في حين أنهم يتغاضون عن زجر أهل الكبرياء والأنانية والطمع. ولكن هذه الخطايا هي التي يمقتها اللهُ بنوع خاص، لأنها تنافي طبيعته السمحة ولا تتماشى مع المحبة الخالصة التي تشكل محيط العوالم غير الساقطة. قد يشعر مرتكب إحدى الخطايا الجسيمة بالخزي والفقر، ويحس بافتقاره الى البرّ واحتياجه إلى نعمة الْمَسِيحِ، ولكن المتكبّر لا يشعر بحاجة ما، فتحول كبرياؤه دونه ودون الْمَسِيحِ وتحرمه من البَرَكَات الغزيرة التي جاء يَسُوعُ لكي يمنحه إياها.

فإنّ ذلك العشار المسكين الذي صلّى قائلاً: «اللهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئَ» لوقا ١٨: ١٣، اعتبرَ نفسَه شريراً أثيماً. وهكذا كان يراه غيره أيضاً، ولكنّه شعر بحـاجته، فجاء بذنبه وعاره إلى اللهِ، ملتمساً رحمتَه تعالى، وفتح قلبه لتأثيرات روح اللهِ القُدُّوس كيما يجدده ويغيرّه، وسلّم نفسه للنّعمة القادرة أن تخلِّصه وتحرره من سلطة

الخطية. وأما الفرّيسي فكانت صلاتُه مملوءةً بروح الزهو والبرّ الذاتي، مما دلّ على أنّ قلبه كان مغلقاً دون تأثير الرُّوح الْقُدُس. فإنّه بسبب ابتعاده عن اللهِ لم يستطع أن يشعر بنجاستِه مقارنة بكمال القداسة الإلهية، وإذ لم يشعر بحاجته مضى دون أن ينال شيئاً.

وإذا تبيّنتَ ما أنت عليه من إثمٍ وخطية، فلا تنتظر ريثما تُصلح ذاتَك، وكم من الناس يظنّون أنهم ليسوا أهلاً لأن يأتوا إلى الْمَسِيح. ألعلّك تحاول أن تصلح نفسَك باجتهاد؟ و «هَلْ يُغَيِّرُ الْكُوشِيُّ جِلْدَهُ أَوِ النَّمِرُ رُقَطَهُ؟ فَأَنْتُمْ أَيْضاً تَقْدِرُونَ أَنْ تَصْنَعُوا خَيْراً أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُونَ الشَّرَّ» ارميا ١٣: ٢٣. إن معونتنا هي من اللهِ فقط، فيجب ألا نتطلع إلى فرص أفضل، ويجب ألا ننتظر حتى نصير أحسن تطبّعاً وتخلّقاً، أو أشد اقتناعاً وتوثقاً، فإننا من أنفسنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً، بل يجب أن نأتي إلى الْمَسِيحِ كما نحن.

فلا يخدعن أحد نفسه ويحسب أن اللهَ من فرط محبته وكرم رحمته سيخلّص أخيراً حتى رافضي نعمته. إنّ الخطية لمرض عضال، لا يدرك استحالة البُرء منه إلا من ينظر إليه في نور الصَّلِيب. عندما يظن الناس أن اللهَ أرحم من أن

يرفض الخاطئ، فما عليهم إلا أن ينظروا الى صليب جلجثة. فنظراً إلى أنه لم يوجد أي طريق آخر بها ينال الإنسان الخلاص، ولأن بدون هذه التضحية كان من المستحيل على الجّنس البشري أن يهرب من قوة نجاسة الخطية، ويعاد الى شركة القديسين، كما كان من المستحيل عليه أن يُصبح شريكاً في الحياة الروحية — بسبب هذه جميعها أخذ الْمَسِيحُ جُرم الخطية على نفسه ومات عوضاً عن الخاطئ. فتشهد محبة ابن اللهِ وتخبر تضحيته العظمى بفداحة الخطية، وتعلنان أنّ لا أمل بالنجاة منها ومن سلطانها، ولا رجاء بالحصول على حياة أسمى إلا بخضوع النَّفْس للمخلّص يَسُوعَ خضوعاً كاملاً.

ويحاول أحياناً الذين يصرون على خطاياهم، أن يبرّروا أنفسهم بقولهم: «نحن مثل اولئك القوم الذين يُدعون مسيحيين. فإنهم ليسوا بأفضل مِنّا تضحية ونكراناً لذواتهم، وليسوا بأكثر مِنَّا حذراً وتعقلاً، بل هم مثلنا يحبّون اللهو والانغماس في الخطية.» وهكذا يتعللون بأخطاء الآخرين، ليبرّروا إهمالهم للواجب. ولكن خطايا الآخرين ونقائصهم لا يمكن أن تبرر إنساناً لأن اللهَ لم

يعطنا مثالاً بشرياً ناقصا، وإنما أعطانا ابنه القدوس لكي نتمثل به. إن أولئك الذين ينعون على الْمَسِيحيين سلوكهم الخاطئ، هم جديرون بأن يُظهروا في حياتهم سلوكا أفضل، ومثلا أسمى وأنبل، لأنه إذا كانت لديهم فكرة سامية كهذه، بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة الْمَسِيحي، أفلا تكون خطيتهم أكبر وأعظم؟ بلى، لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه.

وحذار من أن تؤجّل أو ترجئ الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر إلى طلب تطهير قلبك بواسطة يَسُوعَ، لقد أخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحلّت بهم الخسارة الأبدية، ولست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة وعدم يقينيتها، فللتأجيل خطر أشد وأدهى مما نتصور، لا يفطن إليه الناس كثيراً، وهو أننا بالتجائنا إلى التأجيل، نرفض توسلات روح اللهِ القدوس، ونؤثِر أن نبقى في الخطية على أن نسلم أنفسنا لله. فمن هنا يتأتّى الخطر، ذلك لأنّ الخطية، مهما صغر تقديرنا لها يمكن أن ننغمس فيها على حساب خسارتنا الأبدية، فنحن إن لم نقهرها، قهرتنا وأفضت بنا إلى الهلاك.

كان كلّ من آدم وحواء يقنع نفسَه بأن أمراً يسيراً كالأكل من الشجرة المنهيّ عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروّعة وعواقب وخيمة، كالتي حذرهما منها اللهُ، ولكنّ هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداء على ناموس اللهِ، ذلك الناموس الثابت المُقـدّس. وقد أدى هذا الاعتداء إلى فصل الإنسان عن اللهِ، وتدفّق عوامل الموت والشقاء إلى هذا العالم بكيفية تفوق كلّ وصف. وعلى مدى الأجيال، سُمعت باستمرار صيحات الحزن والعويل تتصاعد من عالمنا، وصارت الخليقة كلّها تئن وتتمخّض، نتيجة لتمرّد الإنسان وعصيانه، ولقد شعرت السّماء نفسها بنتائج عصيانِ الإنسان، وشقّه عصا الطاعة على اللهِ تعالى، وإنّ جلجثة لتذكّرنا دائما بتلك التضحية العجيبة التي اقتضاها التكفير عن الاعتداء على ناموس اللهِ. فيجب ألا ننظر إلى الخطية كأنها أمر تافه وهيّن. فإنّ كل ما نأتيه من أعمال التعدي، وكلّ ما نبديه من إهمال أو رفض لنعمة الْمَسِيحِ، لا بدّ من أن يكون له ردّ فعل في نفوسنا، إذ تتحجّر قلوبنا، وتنحطّ مداركنا، فلا نصبح فقط أقلّ ميلاً لتلبية دعوة الْمَسِيحِ، بل نصير أيضاً أقلّ مقدرة على الخضوع لروح اللهِ

القدوس، والاستجابة لتوسّلاتِه الرقيقة.

غير أنّه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربة بظنّهم أنّهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، وأنّه في استطاعتهم أن يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بنداءات الرحمة، وإصرارهم على مقاومة روح اللهِ القدوس، وحتى بعد انحيازهم إلى جانب الشَّيْطانِ. ولكن هذا كلّه لا يمكن أن يتمّ بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيّفت تماماً، على مرّ الزمن، بما حصلوا عليه من الاختبار والتدريب، وتشكّلت بممارسة العادات والتجارب، حتى ليتعذّر على الكثيرين منهم أن يرغبوا في قبول سمة الْمَسِيحِ.

فإنّ أيَّة خصلة من الخصال الخاطئة، أو أيةَّ رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تُركت وشأنها، كافية لأن تضعف تأثير الإنجيل، وتبطل مفعوله. وإنّ كل تساهل نبديه نحو الإثم، من شأنه أن يزيد النَّفْس إعراضاً عن اللهِ وصدوداً عن الحق. فالإنسان الذي تبدو عليه مظاهر الجحود والكفر والتبلد وعدم الاكتراث للحق الالهي، إنّما هو يحصد ما قد زرع. وليس بين دفَّتي الكِتَاب المُقَدّس إنذاراً

أكثر رهبة ضد الاستخفاف بالشرّ من قول الحكيم: «الشِّرِّيرُ تَأْخُذُهُ آثَامُهُ وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ» امثال ٥: ٢٢.

إنّ الْمَسِيحَ على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، ولكنّه لا يفرض علينا ذلك جبراً وقسراً، فإذا كانت إرادتنا — بسبب إصرارنا على الخطية وتمادينا فيها — قد أصبحت تميل بكليتها إلى فعل الشر، وإذا كنا لا نرغب في التحرّر وفي قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنّما نهلك أنفسنا بإصرارنا على رفض محبته، «هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» «إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ» ٢كورنثوس ٦: ٢ - عبرانيين ٣: ٧ و ٨.

«لأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ, وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ» ١صموئيل ١٦: ٧. نعم، إنّه ينظر إلى القلب البشري الذي تعتمل فيه شتّى العواطف والأحاسيس من فرح وحزن، القلب الجائل التائه، المملوء بكلّ زيفٍ ونجاسة، فيعلم بواعثَه ونيّاته ومقاصده. فتوجه إليه أيها الخاطئ، واعرض أمامه نفسك بكلّ ما فيها من تلوّث وتلطخ، واكشف خفاياها أمام عينه التي ترى كلَّ شيء، واصرخ مردداً قول المرنّم: «اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ

أَفْكَارِي. وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ، وَاهْدِنِي طَرِيقًا أَبَدِيًّا» مزمور ١٣٩: ٢٣ و ٢٤.

كثيرون يقبلون الدين عقلياً، ويحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد. فلتكن طلبتك: «قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي» مزمور ٥١: ١٠. ولكن كن أميناً مع نفسك، باذلاً كلّ جد واهتمام، وتشبّث وإصرار، كما لو كنت مشرفاً على الهلاك. فهذا أمر يجب تسويته، ويجب أن يحلّ بينك وبين اللهِ تعالى بصفة نهائية لأنّ التعلّق برجاء وهمي يكفي وحده لإهلاكنا.

أدرس كلمة اللهِ بروح الصَّلاة، فإنّ فيها شريعته، وحياة الْمَسِيحِ، ومباديء «الْقَدَاسَة الَّتِي بِدُونِهَا لَنْ يَرَى أَحَدٌ الرَّبَّ» عبرانيين ١٢: ١٤، فضلاً عن أنها تبكتنا على الخطية وتعلن لنا طريق الخلاص بوضوح وجلاء. انصت لها، باعتبارها صوت اللهِ الذي يخاطب نفسك.

ومتى أدركت جسامة خطيتك، وتجلت لك نفسك على حقيقتها فلا تستسلم لليأس والقنوط. فإنما لأجل الخطاة قد جاء الْمَسِيحُ من السّماء. فيا له من حبّ فائق عجيب! إذ إننا لا نصالح اللهِ، بل هو الذي «كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحاً

الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ» ٢كورنثوس ٥: ١٩. إنّ اللهَ بحنوّ ومحبة هو الذي يستعطف قلوب أولادّه الشاردين، ليردّهم عن زيغهم وضلالهم. وليس من أبٍ بشري يتسع صبره وحلمه لاحتمال عيوب أولاده وأخطائهم، كما يفعل اللهُ مع الذين يحاول انقاذّهم. ومَن مثل اللهِ في عطفه وحنوّه على الخاطئ الأثيم؟ وليس مِن شفاه بشرّية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد اللهُ الإنسان الضال كما يفعل هو. إنّ كلّ مواعيدِه وتحذيراتِه إنْ هي إلا تنسمات محبته التي لا يُنطق بها.

عندما يأتي الشَّيْطانُ ويوسوس لك أنك خاطيء عظيم، تطلع إلى فاديك وتحدث عن استحقاقاته. وجِّه نظرك الى نوره فتجد العون ، ثم اعترف بخطيتك، وانتهر عدوَّ الخير، وقل له «إنّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جاء إلى العالم ليُخلّص الخطاة» ١كورنثوس ١: ١٥. وإنك يمكن أن تَخْلُص بواسطة محبته الفائقة. عندما سأل الْمَسِيحُ سمعانَ سؤالاً فيما يختص بمديونين كان أحدهما مديناً بمبلغ زهيد، والآخر كان مديناً بمبلغ جسيم جداً، ولكن السيد سامح الإثنين، فأيهما يكون أكثر حبّاً لسيّده؟ أجاب سمعان قائلاً: «أَظُنُّ

الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ» لوقا ٧: ٤٣. فنحن كنا من أَرْدَأ الخطاة، ولكن الْمَسِيحَ مات لكي نوهب الغفران. إنّ استحقاقات ذبيحته وتضحيته لتكفي للتشفّع فينا أمام الآب. والذين سامحهم اللهُ بالأكثر سيحبّونه أكثر، وسيكونون أقرب الناس إلى عرشه، ليسبحوه على محبّته العظمى، وتضحيته التي لا حدّ لها. فإننا، كلما ازددنا إدراكاً لمحبة اللهِ، تحققنا أكثر فأكثر حقيقة الخطية وطبيعتها، وعرفنا أنها خاطئة جداً. وعندما نرى عمق محبته التي أحبنا بها، وندرك شيئاً من تضحيته اللامحدودة لأجلنا، تنفطر قلوبنا حزناً وتذوب أفئدتنا حنواً وتعطّفاً.

٤ - راحة الضمير

«مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمُ» أمثال ٢٨: ١٣.

إذن فما يشترطه اللهُ علينا، لكي يمنحنا رحمته ويهبنا عفوه وغفرانه، سهل وعادل ومعقول. فهو لا يطلب مِنَّا عمل أمر يُحزننا أو يُسبب لنا ألماً، ولا يفرض علينا معاناة السفر وتحمل المخاطر لأداء حجٍّ أو بلوغ مزار. ولا يأمرنا بأن نقوم بأعمالٍ تقشّفية وممارسات تعذيبية، تكفيراً عما اقترفناه من تعدّ وعصيان، وإنما كلّ ما يطلبه اللهُ مِنَّا لكي يشملنا برحمتِه هو الاعتراف بخطايانا والإقلاع عنها.

يقول الرسول: «اِعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالّزَلاَّتِ، وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لأَجْلِ بَعْضٍ لِكَيْ تُشْفَوْا» يعقوب ٥: ١٦. فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، ولنعترف أيضاً بعضّنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءة نحو صديق لك أو جار، فمن حقّه عليك أن تقرّ له بخطئك كما أنّه من الواجب عليه هو أيضاً أن يرضى ويصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمس عفو اللهِ وغفرانه،

لأنّ ذلك الأخ الذي تطاولت عليه وجرحتَه إنّما هو مُلك اللهِ، فإن أضررت به، فأنت تخطيء ضد خالقه وفاديه. ومتى اعترفت لله بخطيتك ولأخيك بذنبك، فإن القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي الوحيد ورئيس الكهنة الأعظم الذي هو «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ»، ومستعد «أن يرثي لضعفاتنا»، عبرانيين ٤: ١٥، وقادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم.

إذن فأولئك الذين لم يذللوا نفوسهم أمام اللهِ، معترفين بذنبهم لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب إلى اللهِ توبة لا رجعة عنها ولا انتكاص، وإن كنا لم نعترف له بخطايانا بتذلل وانكسار، ولم ننظر إلى الإثم نظرة مقت واستنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حقاً الصفح والغفران. وإن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام اللهِ. إنه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفراناً عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام اللهِ والإذعان لشروط كلمة الحق. فإن اللهَ تعالى قد أعطانا تعليمات صريحة في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أَمْ علنية، يجب

أن يصدر عن القلب، ويجب أن يعترف به الفم ويردده اللسان، لأن الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام اعتباطي وليس هو مجرد تصريح ينتزع من صاحبه انتزاعاً، دون أن يدرك جسامة خطيته، ويشعر بشدة نفوره منها واستنكاره لها. وإنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلاً إلى رحمة اللهِ وعفوه، هو الذي يصدر من أعماق النَّفْس ويصعد من صميم القلب. كما يقول المرنّم: «قَرِيبٌ هُوَ الرَّبُّ مِنَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيُخَلِّصُ الْمُنْسَحِقِي الرُّوحِ» مزمور ٣٤: ١٨.

فالاعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، ويتناول الإقرار بالخطايا على وجه التخصيص. هذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام اللهِ فقط، وقد تكون غلطات يجب أن نعترف بها أمام من ألحقنا بهم ضرراً وسوءاً وقد تكون أيضاً ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهاراً. ولكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محدداً ومنصبّاً على الاعتراف بالخطية التي ارتكبناها.

ففي زمن صموئيل ضلّ الإسرائيليون عن اللهِ، وكانوا

يعانون من نتائج خطيتهم لأنهم فقدوا إيمانهم وثقتهم به، وتيقنهم من قدرته وحكمته لإدارة الحكم، والدفاع عن قضيته وتزكيتها. لقد تحوّلت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده مقاليد الكون بأسره رغبة منهم في أن يكون لهم مَلك أسوة بمَن حولهم مِن الأمم والشعوب. وقد تمّ لهم ما أرادوا ولكنَّهم باؤوا بالفشل والخيبة، ولم يتذوقوا طعم السلام والاستقرار حتى أتوا إلى اللهِ واعـترفوا بما اقترفوه من جحود وإنكار، إذ قالوا لصموئيل: «صَلِّ عَنْ عَبِيدِكَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكَ حَتَّى لاَ نَمُوتَ، لأَنَّنَا قَدْ أَضَفْنَا إِلَى جَمِيعِ خَطَايَانَا شَرّاً بِطَلَبِنَا لأَنْفُسِنَا مَلِكاً» ١صموئيل ١٢: ١٩. فالاسرائيليون إذ اقتنعوا بأن نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن اللهِ، وأدّى إلى قطع روابط الشركة بينه وبينهم، لم يجدوا مَفَرّاً من تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية بالذات، إذ قالوا: «لأَنَّنَا قَدْ أَضَفْنَا إِلَى جَمِيعِ خَطَايَانَا شَرًّا بِطَلَبِنَا لأَنْفُسِنَا مَلِكًا».

غير أن الاعتراف لا يكون مقبولاً عند اللهِ، إلا إذا كان مقترناً بالتوبة والإصلاح. فيجب أن تتناول الحياة تغييرات ظاهرة، ويجب العمل على نبذ كل شيء يسيء إلى اللهِ

تعالى. ولن يتأتى كل هذا إلا نتيجة لحزن حقيقي وتوبة خالصة. وأما الإصلاح الذي يتعين علينا أن نقوم به من جانبنا فقد بيَّنه النَّبِيّ إشعياء جلياً وواضحاً في قوله: «اِغْتَسِلُوا. تَنَقُّوا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فِعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ» إشعياء ١: ١٦ و ١٧. كذلك نوَّه به حزقيال في قوله: «إِنْ رَدَّ الشِّرِّيرُ الرَّهْنَ وَعَوَّضَ عَنِ الْمُغْتَصَبِ وَسَلَكَ فِي فَرَائِضِ الْحَيَاةِ بِلاَ عَمَلِ إِثْمٍ, فَإِنَّهُ حَيَاةً يَحْيَا. لاَ يَمُوتُ» حزقيال ٣٣: ١٥. وأيضاً فصَّله الرسول بولس في قوله: «فَإِنَّهُ هُوَذَا حُزْنُكُمْ هَذَا عَيْنُهُ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ، كَمْ أَنْشَأَ فِيكُمْ مِنَ الاِجْتِهَادِ، بَلْ مِنَ الاِحْتِجَاجِ، بَلْ مِنَ الْغَيْظِ، بَلْ مِنَ الْخَوْفِ، بَلْ مِنَ الشَّوْقِ، بَلْ مِنَ الْغَيْرَةِ، بَلْ مِنَ الاِنْتِقَامِ. فِي كُلِّ شَيْءٍ أَظْهَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنَّكُمْ أَبْرِيَاءُ فِي هَذَا الأَمْرِ» ٢كورنثوس ٧: ١١.

فالخطية متى أماتت الشعور الأدبي، تجعل فاعل الإثم لا يرى ما في صفاته من نقائص وعيوب، ولا يتحقق فداحة الشر الذي ارتكبه. فما لم يخضع لقوة الرُّوح الْقُدُس

المقنعة، يظل غير مدرك لخطيته إدراكا كاملاً، وتكون اعترافاته خالية من روح الجد والإخلاص إذ يحاول عند كل اعتراف أن يلتمس لنفسه الأعذار، ناسباً أخطاءه إلى الظروف التي أحاطت به، والتي لولاها لما ارتكب مثل هذا الذنب الذي يلام عليه.

فإنّ آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المنهيّ عنها، شعرا بالخزي والعار وأحسَّا بالرهبة والخوف. وكان جلّ همهما في مبدأ الأمر منصرفاً إلى تلمّس وسيلة الاعتذار عن خطيتهما، والتخلّص من حكم الموت الرهيب. فلما بدأ اللهُ يسألهما عن الخطية التي اقترفاها، أخذ آدم يلقي باللوم على اللهِ تعالى وعلى المرأة، إذ قال: «الْمَرْاةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ اعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَاكَلْتُ» تكوين ٣: ١٢. وكذلك المرأة بدورها أخذت تنحي باللائمة على الحَـيَّة، إذ قالت: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَاكَلْتُ» تكوين ٣: ١٣، كأنها تعترض على اللهِ تعالى قائلة لماذا خلقت الحَيَّة ولماذا تركتها تتسلل إلى جنة عدن؟ تلك كانت الأسئلة المتضمنة في عذرها عن خطيتها. وهكذا ألقت التبعة على اللهِ سبحانه، وجعلته

مسؤولاً عن زلتهما وسقطتهما. ولا عجب في ذلك فإن روح التنصّل من المسؤولية وتبرئة أنفسنا تولدت في الأصل عند إبليس الملقّب بأبي الكذاب ومنه سرت إلى كل ذرية آدم وحواء. مثل هذه الاعترافات ليست بإيحاء من الروح الإلهي، وبالتالي فهي غير مقبولة البتة عند اللهِ. أمّا التوبة الصحيحة فإنّها تجعل الإنسانَ يحمل ذنبه بنفسه، ويقرّ به في غير خداع ونفاق، كما فعل ذلك العشَّار الذي لم يجرؤ أن يرفع عينيه نحو السّماء، بل قرع على صدره وصرخ قائلاً: «اللهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئَ» لوقا ١٨: ١٣. فعاد إلى بيته مبرراً. وهكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لأن يَسُوعَ نفسَه يتشفَّع بدمه لأجل كل نفس تائبة.

وإنّ الأمثلة الواردة في كلمة اللهِ بشأن التوبة الحقيقية توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلّل وتنصّل، وتبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوبه البرّ الذاتي.فبولس، مثلاً، لم يحاول قط أن يبريء نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصوّر خطيته كأشدّ ما تكون اسوداداً وإظلاماً دون أن يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول: «وَفَعَلْتُ ذَلِكَ أَيْضاً فِي أُورُشَلِيمَ فَحَبَسْتُ فِي سُجُونٍ كَثِيرِينَ

مِنَ الْقِدِّيسِينَ آخِذاً السُّلْطَانَ مِنْ قِبَلِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ. وَلَمَّا كَانُوا يُقْتَلُونَ أَلْقَيْتُ قُرْعَةً بِذَلِكَ. وَفِي كُلِّ الْمَجَامِعِ كُنْتُ أُعَاقِبُهُمْ مِرَاراً كَثِيرَةً وَأَضْطَرُّهُمْ إِلَى التَّجْدِيفِ. وَإِذْ أَفْرَطَ حَنَقِي عَلَيْهِمْ كُنْتُ أَطْرُدُهُمْ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِي فِي الْخَارِجِ» أعمال ٢٦: ١٠ و ١١. بل ولم يتردد أن يقول «أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» ١تيموثاوس ١: ١٥.

أجل، فانما بالتواضع والانكسار، والتوبة الصادقة يستطيع الخاطئ أن يقدّر شيئاً من محبة اللهِ، وشيئاً مما أنفق في جلجثة. فيأتي إلى اللهِ كما يأتي إلى أبيه المُحِب، معترفاً بكل ذنوبه، وتائباً عن كل خطاياه، لأنه مكتوب: «إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ.حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» ١يوحنا ١: ٩.

٥ - التكريس التام

بهذا وعدنا اللهُ: «تَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ» إرميا ٢٩: ١٣.

إنْ لم نطلب اللهَ بكل قلوبنا لا نجده، وإن لم نذعن له إذعاناً كاملاً لا نتغيّر عن شكلنا لنكون مشابهين صورته ومثاله، لأننا بالطبيعة أعداء اللهِ، وقد وصفنا الرُّوح الْقُدُس بأننا أموات «بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا» أفسس ٢: ١، وشخَّص حالتنا فقال: «كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ... لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ» إشعياء ١: ٥ و ٦، فنحن مُمسَكون في فخاخ إبليس مُقتنصون لإرادته، ٢تيموثاوس ٢: ٢٦. غير أن اللهَ تعالى يريد شفاءنا ويرغب في تحريرنا، وهما أمران يستوجبان تغييراً شاملاً في صفاتِنا وتجديداً كاملاً في طبيعتِنا ولا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليماً تاماً.

نعم، إنّ محاربة الأثرة فينا هي أعظم معركة دارت رحاها إطلاقاً، لأنَّ تسليم النَّفْسِ لله وإخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حرباً عواناً وصراعاً عنيفاً، والنَّفْس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربِّها خضوعاً مطلقاً.

غير أنّ سياسة اللهِ ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشَّيْطانُ، مؤسسة على تحكّم غاشم يتطلب مِنّا تسليماً أعمى. يناشد اللهُ عقولنا ويهيبُ بضمائرنا إذ يدعونا قائلاً، «هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ» إشعياء ١: ١٨، فهو تعالى يأبى أن نتعبّد له قسراً واضطراراً، لأن استعمال الوسائل القهرية والأساليب الجبرية يعيق تقدّمنا الفكري وتحسننا الخُلُقي ويجعل مِنّا آلة صمّاء، فما لغرض كهذا خلقنا اللهُ، بل ليسمو الإنسان الذي توَّج به عمل الخلق إلى أقصى مراتب الرقي وأسمى غايات التقدم، جاعلاً أمامنا ذروة البَرَكَة التي نبلغُها بنعمته، وداعيا إيانا أن نبادر بتسليم أنفسنا له لكي يعمل فينا إرادته ويتمم فينا مشيئته. فالأمر متروك لنا لنختار فيما إذا كنا سنتحرر من عبودية الخطية، لكي نشترك في حرية مجد أولاد اللهِ.

إنَّ تكريس ذواتِنا لله ليستلزم حتماً أن نتنحّى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يَسُوعُ في حديثه مع تلاميذه، إذ قال: «فَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لاَ يَتْرُكُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً» لوقا ١٤: ٣٣. فكل شيء يحوِّل القلب عن اللهِ يجب نبذه وتركه، فالمال

صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء. ومحبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشَّيْطانُ بها. وآخرون يتعبدون للشهرة والجاه العالمي، وغيرهم يتعبدون لصنم التكاسل والتراخي وعدم تحمُّل العواقب والفرار من المسؤوليات. فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزّيء حياتنا بين اللهِ والعالم، بل لا نكون أولاداً لله حتى نكرس أنفسنا له تكريساً تاماً.

ومن الناس من يدّعون بأنهم يعبدون اللهَ، بينما هم لا يعتمدون إلا على برّهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفظوا الناموس، ويمارسوا حياة الفضيلة، ويحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على ذلك كله محبة الْمَسِيحِ. فهم يسعون لممارسة واجبات الحياة الْمَسِيحية كفرض يطلبه اللهُ منهم لحصولهم على السَّمَاء. فمثل هذه الديانة لا تفيد شيئاً ولكن متى حل الْمَسِيحُ في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، واغتبطت نفوسنا بعِشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتِنا، ونجعله هو مركز تفكيرنا ومحور تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة الْمَسِيحِ، لأن الذين تحصرهم

محبة اللهِ لا يعودون ينظرون إلى الحياة الْمَسِيحية كأنها فرض يؤدى أو واجب يقضى، لا يحاولون أن يظفروا منها بأكبر مكسب وأقل خسارة بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالْمَسِيحِ، والعمل بموجب مشيئته وإرادته، مبدين من الاهتمام ما يتفق والغرض الذي ينشدونه. فإن الاعتراف بالْمَسِيحِ إذا لم يكن صادراً عن حُب عميق فإنه لا يعدو أن يكون مجرّد كلمات عابرة وممارسات شكلية، وحياة كلها عبودية.

أفتشعر بأنه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل الْمَسِيحِ؟ إذن فسل نفسك: ماذا أعطى الْمَسِيحُ لأجلي؟ إنه بذل كل شيء لفدائِنا — حبَّه وحياتَه وآلامه أَفَنَبْخَلُ عليه بقلوبنا، ونحن لسنا أهلا لمحبة عظمى كهذه؟ وإنما لكوننا نتمتّع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بَرَكَات نعمته، صرنا لا ندرك تماماً عمق الجهل والبؤس اللذين أنقذنا منهما. وهل نستطيع أن نراه مطعوناً بخطايانا، ثمّ نزدري محبته وتضحيته؟ وهل نستطيع أن نرى تواضع رب المجد الذي لا حدّ له ثم نتذمرّ لأنه لا سبيل إلى دخول الحياة إلا بالصراع وإذلال النَّفْس؟

فكم من أناسٍ ذوي قلوب متكبّرة يتساءلون قائلين: وما ضرورة التذلل والاتضاع، والحزن والتوبة؟ وهل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد اللهُ لنا قبولنا؟ وردّاً على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير إلى الْمَسِيحِ نفسه الذي كان منزّها عن الخطية، فضلاً عن كونه رئيس السَّمَاء، ولكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم صار خطية لأجلنا «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ» إشعياء ٥٣: ١٢.

ولكن ما هو هذا «الكلّ» المطلوب مِنَّا أن نقدّمه لله؟ إنّه القلب، وما هو إلا قلب ملوّث بالاثم والخطية يريد الْمَسِيحُ أن يطهره بدمه الزكي، ويخلّصه بمحبته الفائقة! ومع ذلك فإن ما يدعو للأسف والحسرة هو أن الناس يستصعبون أن يعطوا هذا «الكلّ» لله، إنني أخجل من سماع هذا الكلام وأخجل من الكتابة عنه.

على أن اللهَ تعالى لا يطلب مِنَّا أي شيء يرى من مصلحتنا أن نستبقيه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمله ويجربه، إنما يضع نصب عينيه خير خلائقه وصالح بنيه. فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا الْمَسِيحَ بعد، يدركون أن لديه أشياء

فضلى يريد أن يمنحهم إياها. وإنّ هذه الأشياء تفوق كثيراً ما ينشدونه هم أنفسهم، فإن الإنسان حين يفكر ضد مشيئة اللّهِ، ويعمل ضد إرادته تعالى، إنما يسيء إلى نفسه ويجحف بصالِحه. لأن الفرح الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحظور، والخروج على وصية اللّهِ الذي يعرف تماماً كل ما يؤول لخير خلائقه، فإن طريق الإثم والتعدّي إنما ينتهي بنا إلى البؤس والتردّي.

وإنه لمن الخطأ أن نظن أنّ اللّهَ تعالى يرضى بأن يرى أولاده يتألّمون، لأن السَّمَاء جميعها يهمها إسعاد الإنسان. كما أن أبانا السَّمَاوي لا يسدّ مسالك السَّعادة أمام أحدٍ من خلائقه، وإنما هو يهيب بنا أن نقلع عن الانغماس في اللذات التي تُفضي بنا إلى اليأس والشقاء، فضلاً عن أنها توصد أمامَنا باب السعادة، وتحول دون دخولنا السّماء. كذلك يَسُوعُ الفادي على استعداد لأن يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف ونقص وعوز، وهو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية ومنحنا الفداء بدمه، بل هو أيضاً على استعداد لأن يشبع رغائب كل الذين يلبّون دعوته ويحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة والسلام لكل

من يأتي إليه ملتمساً خبز الحياة. وإنما هو يتطلب مِنَّا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتنا إلى أوج السعادة والهناء، مما يستحيل بلوغه على كل من يخالف وصية اللهِ. إنَّ حياةَ البهجة الحقيقية لن تتهيأ إلا إذا تصوَّر الْمَسِيحُ فينا «رجاء المجد».

ولرب سائل: كيف أسلم نفسي لله؟ فأنت إذاً راغب في تسليم نفسك له، ولكنّك تشعر بعجزك الروحي وقصورك الأدبي، إذ ترى نفسك مُستعبَداً للشكوك المقلقة، ومستأسراً للعادات الشريرة، متشبثاً بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، وعزيمتك مفلولة، فأنت لا تستطيع السيطرة على أفكارك ولا التحكم في نوازعك ومشاعرك. وتيقنك عدم وفائك بوعودك قد أضعف ثقتك في إخلاصك وجعلك تتشكك في إمكانية قبولك لدى اللهِ، ومع ذلك، فيجب ألا تقنط أو تيأس، لأن كل ما يلزمك في مثل هذا الموقف، هو أن تفهم قوة الإرادة وتعرفها على الوجه الصحيح. فهي عبارة عن القوة الضابطة التي أوجدها اللهُ في طبيعة الإنسان. وهي القوة التي بها نقرر وبها نختار. فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، وعلى حُسن

توجيهها واستخدامها. فالقدرة على الاختيار هي عطية اللهِ للبشر وعليهم استخدامها. فإن كنت عاجزاً عن تجديد قلبك وتغيير عواطفك، فما أنت بعاجز عن أن تختار، وما أنت بقاصر عن أن تسلّم لله نفسك وإرادتك، ومتى سلمت له ذاتك فإنه لا يلبث أن يعمل في قلبك لأن تريد وأن تعمل من أجل المسرّة. وعندئذ تصبح طبيعتك تحت سيطرة الروح. ويصبح الْمَسِيحُ محور تفكيرك، وقِبلة عواطفك وشعورك.

ولئن تكن الرغبة في الحصول على الصلاح والقداسة هي عين الصواب، إلا أنّه يجب أن لا نقف في جهادنا عند حدّ الرغبة فقط، إذ إنَّ كثيرين سيهلكون لأنّ كل همّهم كان مقتصراً على التعلّل بالرغبة والأمل، دون أن يسلموا أنفسهم لله، ويختاروا الْمَسِيحَ نصيباً لهم.

ولكنّك إذا أحسنت استخدام إرادتِك، وسلَّمت نفسك للمسيح، فلا بدّ من أن يشمل حياتك تغيير كلّي، وتصبح متحالفاً مع القوة التي هي فوق كل رياسة وسلطان. عندئذ يمدّك اللهُ بكلّ قوّة علوية، ليحفظك ويثبّتك. وهكذا بخضوعك الدائم لله، تستطيع أن تحيا حياة جديدة، حياة

الإيمان العامل بالمحبة.

٦ - السَّلام التام

إذا أحيا الرُّوح الْقُدُس ضميرك، أدركت شيئاً من شرّ الخطية وقوّتها وجرمها وويلاتها. فعافتها نفسُك، لأنك شعرت بأنها قد فصلتك عن اللهِ واستعبدتك بسلطانها. وكلّما حاولت التحرّر منها، تأكدت من عجزك وتَثَبَّتَ من قصورك. وعرفت أنّ بواعثَك دنسة وقلبَك نجس وحياتك مليئة بالأنانية وحب الذات، مفعمة بالخطية. فأصبحت الآن تتوق إلى الغفران وتشتاق إلى التطهير والعتق، فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع اللهِ وتتصف بصفاته؟

إنّ مسيس حاجتك هي إلى السَّلام، سلام اللهِ الناشيء عن غفران الخطية وانسكاب المحبة في نفسك. ولا تقدر أن تشتري هذا السَّلام بالمال ولا تستطيع أن تناله بالعقل ولا أن تدركه بالحكمة. ومجهوداتك تخيّب أملك في الحصول عليه. ومع ذلك هو في طاقة يدك، لأنّ اللهَ قد وهبه لك مجاناً «بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ» إشعياء ٥٥: ١. كما قال أيضاً: «إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ

كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ» إشعياء ١: ١٨، «وَأُعْطِيكُمْ قَلْباً جَدِيداً, وَأَجْعَلُ رُوحاً جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ» حزقيال ٣٦: ٢٦.

وها أنت قد اعترفت بخطاياك، وتحوَّلت عنها في قلبك. وعزمت أن تسلّم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى واطلب منه أن يغسلك من ذنوبك ويجعل فيك قلباً جديداً. ثم صدِّق أنّ الرب قد فعل هذا كلّه لأنّه وعد به، فيكون لك. وقد علَّم يَسُوعُ بهذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض بأن العطية التي يعدنا بها اللهُ علينا أن نؤمن أننا ننالها فتكون لنا. فوعده الأكيد هو: «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. شفى يَسُوعُ المرضى عندما آمنوا بقدرته. لقد ساعدهم في ما كانوا ينظرون ليُكسبهم الثقة به في ما لم ينظروا والإيمان بقدرته على غفران الخطايا أيضا، كما صار في حادثة شفاء المفلوج مثلاً، إذ قال للجمهور: «لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لاِبْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا»، حينئذ قال للمفلوج: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ»، متى ٩: ٦، وأيَّد البشير يوحنا هذه الحقيقة وهو يدوّن الآياتِ التي صنعها يَسُوعُ إذْ قال «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ

يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ»، يوحنا ٢٠: ٣١.

من القصص التي رواها الإنجيل بكل بساطة عن الكيفية التي شفى بها يَسُوعُ المرضى، يمكننا أن نتعلّم شيئاً عن الإيمان به لغفران الخطية. فلنرجع إذاً إلى المريض المضطجع عند بِرْكَة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفاً جداً وقد بلغ العجز منه حداً لم يستطع معه أن يستعمل أوصاله لمدة ٣٨ سنة، ومع ذلك أمره يَسُوعُ قائلاً: «قُمِ اِحمِلْ سريرَكَ وامشِي» يوحنا ٥: ٨. فلو احتج المريض قائلاً: اشفني ياسيد فأطيع أمرك، لما نال الشفاء. ولكنه لم يحتج بل صدَّق كلمة الْمَسِيحِ وآمن أنه قد شُفي. وفي الحال همَّ بالقيام فقام، وأراد أن يمشي، فمشى. أطاع كلمة الْمَسِيحِ فأعطاه اللهُ القدرة وبريء البرء التام.

وأنت بالمثل خاطئ ، ولا تستطيع أن تكفِّر عن تعدياتك السالفة، ولا تقدر أن تغيّر قلبك أو أن تقدِّس نفسك. ولكن قد وعدك اللهُ بأن يصنع هذا كله لأجلك في الْمَسِيحِ. أنت تؤمن بهذا وتعترف بخطاياك وتسلم ذاتك لله، وتريد أن تخدمه تعالى. فحالما تؤمن بالوعد وتصدق أن خطاياكَ

قد غُفرت وقلبكَ تطهَّر، يحقق اللهُ لك البُرء، تماما كما أعطى الْمَسِيحُ مريضَ بيت حسدا القوة على المشي عندما آمن أنه قد شفي. فالأمر يصبح واقعا. وأنت قد شفيت، إن كنت قد آمنت.

فلا تنتظر حتى تشعر بأنك قد شفيت، بل قل أنا آمنت، وقد صار الشفاء، لا لأني شعرت به، بل لأن اللهَ قد وعد به.

قال يَسُوعُ: «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة اللهِ. ولكن اللهَ يريد أن يطهّرك من الخطية وأن يتبنّاك أيضاً ابناً له، وأن يقدِّرك على حياة القداسة. فاطلب كل هذه البَرَكَات مؤمناً بأن تنالها، بل اشكر اللهَ أنك قد نلتها. إنّه من حقك أن تسلّم نفسك للمسيح ليطهّرك، فتقف إذ ذاك أمام الشريعة التي تعدّيت مناهيها غير خَجِلٍ وغير مُدان. لأن «لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ» رومية ٨: ١.

ومن الآن فصاعداً أنت لست لذاتك، لأنك اشتُريت بثمن «لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ ... بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ» ١بطرس ١: ١٨ و ١٩. بإيمانك باللهِ قد وَلَّد الرُّوح الْقُدُس حياة جديدة في قلبك، فصرت طفلاً في أسرة اللهِ الذي يحبك كما يحب ابنه يَسُوعَ.

وإذ قد سلمت نفسك ليَسُوعَ، فلا ترتد عنه ولا تبتعد، بل قل في نفسك كل يوم، «إني للمسيح، وقد سلمته ذاتي». واطلب إليه أن يمنحك من روحه ويحفظك بنعمته. فكما صرت أبناً له، بتسليمه نفسك وإيمانك به، فكذلك تحيا به، حسب قول الرسول: «كَمَا قَبِلْتُمُ الْمَسِيحَ يَسُوعَ الرَّبَّ اسْلُكُوا فِيهِ» كولوسي ٢: ٦.

يشعر البعض بأنّهم، قبل أن يصير لهم الحق في طلب البَرَكَة يجب أن يجتازوا امتحاناً يُثبتون فيه أنهم قد أصلحوا حياتَهم. بيد أنّ الحقيقة هي أنّ لهم الحق في أن يطلبوا البَرَكَة الآن، بل هم، إن لم ينالوا نعمة الْمَسِيحِ، وإن لم يأخذوا من روحه ليعين ضعفاتهم، لا يستطيعون أن يقاوموا الشرّ. زِد على ذلك أنّه يجب أن نأتي إلى الْمَسِيحِ كما نحن خاطئين عاجزين محتاجين. فلنأت بضعفاتنا

وجهالاتنا ونجاساتنا، ولنَرتَمِ عند قدميه نادمين، لأنه من دواعي فخر الْمَسِيحِ ومجده، أن يحتضننا بذراعي محبته، ويضمّد جروحَنا وينقّي قلوّبنا.

إن الكثيرين لا ينالون الخلاص لأنهم لا يصدقون أنّ عفو الْمَسِيحِ يشملهم هم شخصياً، ولا يثقون بأنّ اللّهَ يقصدهم بالذات في مواعيده. بيد أنّه من حقّ كل فرد قد آمن بعفو الْمَسِيحِ أن يعرف ويتأكد أنّ جميع خطاياه قد غُفرت مجّاناً. فإن كنت تشكّ في أنّ اللّهَ يعنيك بمواعيده، انزع عن نفسِك هذا الشكّ وآمن بأنّ مواعيد اللّهِ إنّما هي لكل مذنب تائب بالحق، بل إنّه تعالى قد أعدّ في الْمَسِيحِ قوة ونعمة يقدمهما لكل مؤمن محتاج بواسطة الملائكة الطائعين أمرَه. وليس من مذنبٍ قد بلغت خطيّتَه وإثميته حدّاً لا يجد معه القوّةَ والطهارةَ والبِرّ في الْمَسِيحِ الذي مات لأجله. فإنّ الفادي لفي انتظار الخاطئ الأثيمِ لكي ينزع هو عنه الثيابَ القذرةَ الملطخة ويلبسه ثوب برّه الأبيض. فقد أمرَ بحياته لا بموتهِ.

إنّ اللّهَ لا يعاملنا كما يعامل الناس بعضُهم بعضاً، إذ إنَّ أفكارَه أفكار رحمةٍ ومحبةٍ وشفقةٍ كما صرّح بذلك قائلاً:

«لِيَتْرُك الشِّرِّيرُ طَرِيقَهُ وَرَجُلُ الإِثْمِ أَفْكَارَهُ وَلْيَتُبْ إِلَى الرَّبِّ فَيَرْحَمَهُ وَإِلَى إِلَهِنَا لأَنَّهُ يُكْثِرُ الْغُفْرَانَ». و «قَدْ مَحَوْتُ كَغَيْمٍ ذُنُوبَكَ وَكَسَحَابَةٍ خَطَايَاكَ» إشعياء ٥٥: ٧؛ ٤٤: ٢٢.

«لأَنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَارْجِعُوا وَاحْيُوا» حزقيال ١٨: ٣٢. ولكن الشَّيطان واقف لنا بالمرصاد ليسلب نفوسنا ثقتها بهذه التأكيدات الإلهية، ويُطفي فينا كلّ بارقة أمل، ويحجز عنّا كلَّ شعاعٍ من النور. فلا تسمح له بأن يفوز بشيء مما يضمره لك. ولا تعطه أُذناً صاغية، بل قل له «إنَّ يَسُوعَ قد مات عني لكي أحيا أنا، فهو إذن يحبّني ولا يشاء أن أموت، ولي أب رحيم في السَّمَاء، ولئن كنت قد أسأت إلى محبته وبذّرت بإسراف بَركاتِه»، فإنّي «أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْناً. اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاك»، لوقا ١٥: ١٨ و ١٩. ويخبرنا المثل كيف تم استقبال الابن الضال: «وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيداً رَآهُ أَبُوهُ فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ» لوقا ١٥: ٢٠.

إنّ مثل الابن الضال، وإن كان بالغاً في اللطف والرقة ليقصر عن وصف شفقة اللهِ الأبوية التي لا تعرف حداً.

وقد قال على لسان إرميا: «مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُك، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَدَمْتُ لَكَ الرَّحْمَةَ» إرميا ٣١: ٣. بينما الخاطيء لا يزال بعيداً عن بيت الآب السَّمَاوي يبذر أمواله في بلاد بعيدة، يتّقد قلبُ الأب شوقاً إليه، وكل ما يتولّد في قلب الخاطئ من رغبة في الرجوع إلى اللهِ إنما هو من نتيجة نداءات الرُّوح الْقُدُس له وتوسلاته إليه ليرجع الى قلب أبيه المحب.

أَبَعْدَ هذه المواعيد الكتابية الغنية التي جعلها اللهُ بين يديك، تدع للشك مكاناً في نفسك؟ وهل تتصور أنّ الله يُبْدي صدوداً وجفاء لخاطئ تتوق نفسه إلى أن يترك خطاياه ويرجع إليه نادماً تائباً. تبّاً لكلّ فكرة كهذه، لأنه لا شيء أضر لنفسك من مثل هذه الأوهام. فإن الآب السَّمَاوي، وإن كان يبغض الخطية، إلا أنّه يحب الخاطئ. ولذلك بذل نفسه في شخص الْمَسِيحِ لكي يُخَلِّص كل مَن أراد الخلاص، ويمنحه السعادة الأبدية في ملكوت المجد. وهل من لغة تُعبِّر عن محبته أرق وأقوى من قوله: «هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هَؤُلاَءِ يَنْسِينَ وَأَنَا لاَ أَنْسَاك» إشعياء ٤٩: ١٥

فانتصب يا مَن عراك الشَّك والخوف، فإن يَسُوعَ حيّ

ليشفع فيك. واشكر اللهَ الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، وتوسل إليه أن لا يكون موتُه عنك عبثاً. فإن الرّوح يدعوك اليوم مناشداً إياك أن تأتي بكل قلبك إلى يَسُوعَ، وتطلب إليه أن يمنحك هباته وبَرَكَاتَه.

وإذ تقرأ المواعيد فاذكر أنها تعبّر عن رحمة وشفقة لا توصفان. فإنّ قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطئ ويحوطه بكل عوامل الرأفة والحنان. ونحن قد صار «فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا» أفسس ١: ٧. ولم يبقَ عليك إلا أن تؤمن بأنّ اللهَ هو عونك وقوتك وهو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإنسان. فكلما اقتربت منه بالاعتراف والتوبة، اقترب هو أيضا منك بالرَّحمة والغفران.

٧ - مُتَجَدِّدونَ في الْمَسِيحِ

«إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً» ٢كورنثوس ٥: ١٧.

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تماماً الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، وقد لا يستطيع أيضاً أن يحدد المكان أو الأحوال التي لابست عملية التجديد ولكن هذا لا يعني أنه غير متجدد. فقد قال الْمَسِيحُ لنيقوديموس، «اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ» يوحنا ٣: ٨. وكما أن الريح لا تُرى بالعين بل تُعرف بتأثيرها وقوتها، فكذلك عمل روح اللهِ في قلب الإنسان. فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن تُرى بالعين البشرية، تُولّد في النَّفْس حياة روحية، وتجعل من الإنسان مخلوقاً جديداً على صورة اللهِ. وفيما يكون عمل الروح في الداخل سرّياً خفيّاً، يكون تأثيره في الحياة الخارجية ظاهراً جلياً. وكل تجديد يتمّ في قلب الإنسان بفعل الرُّوح الْقُدُس، تتجلّى

آثاره للعيان. وبينما لانستطيع أن نغيّر قلوبنا بأنفسنا أو نجعل حياتنا في توافق مع اللّٰهِ، وبينما لا يمكننا الركون الى ذواتنا أو إلى أعمالنا الصالحة، إلا أن حياتنا ستعلن فيما إذا كانت نعمة اللّٰهِ قد تغلغلت في قلوبنا. وسيظهر التغيير حتما في صفاتنا وعاداتنا ومساعينا. فلا بدّ من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، وما صرنا إليه. غير أن من المصادفات، صالحة كانت أَمْ طالحة، لا تكشف القناعَ عن حقيقة أخلاق الإنسان، وإنما يعلنها اتجاه حياته الدائم وأعماله وكلماته المعتادة.

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهرٍ لائقٍ دون أن يكون متجدداً بنعمة اللّٰهِ. وقد ينشيء حبّ النفوذ والرغبة في إعجاب الغير نظاماً جميلاً في حياته. وقد يؤدي به الاعتداد بالذات إلى تجنّب الشرّ. «وقد يجود البخيل»، فكيف إذن، والحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجدَّدنا أَمْ لا؟ وإلى أي جانب ننتمي؟

ولكن لمنَ القلب؟ وفي منَ نفكّر وعمّن نتحدث؟ وبمَن نتعلّق حباً واشتياقاً، ولأجل مَن نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فبه نلهج وفيه نفكر واسمه نذكرُ وله نقف

جميع مالنا، وإننا لنشتاقُ إذ ذاك إلى أن نكون مشابهين له، ونقتفي آثارَه، ونمتليء من روحه، ونطلب رضاه في كل شيء.

فكلّ الذين يصيرون في الْمَسِيحِ خليقة جديدة يظهرون في حياتهم أثمار الروح التي هي، «مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ» غلاطية ٥: ٢٢ و ٢٣. فلا يعودون يسلكون حسبَ شهواتِهم السابقة، بل بإيمان ابن اللهِ يتبعون خطواتِه. ويحملون صفاتِه وسجاياه، ويطهرون أنفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبّون ما كانوا يكرهون، ويكرهون ما كانوا يحبّون، فالفاسق المنغمس في الملذات تراه وإذا هو قدّيس طاهر. والمتكبّر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور. ومدمنُ الخمرِ تراه فإذا هو قد طرح الشرَّ جانباً وتخلى عن عادات العالم وطرقه. فالْمَسِيحي لا يسعى للتحلي بالزينة الخارجية، لكن بإنسان «الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ» ١بطرس ٣: ٣ و ٤.

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا إذا شمل الحياة

كلّها تغيير فعلي وإصلاح حقيقي. فاذا قام الخاطيء برد ما ارتهنه، وتعويض ما اسْتَلَبَه، والاعتراف بما اقترفه وارتكبه، وأظهر محبته لله، ولأخيه الإنسان، ليعلم أنه قد انتقل من الموت إلى الحياة.

وعندما نأتي إلى الْمَسِيحِ، كخطاة وأثمة، ونصبح مشاركين لنعمته الغافرة، تتفجر في قلوبنا ينابيع المحبة. فيصبح كل حمل خفيفاً، لأن النّير الذي يسمح به الْمَسِيحُ يسهل حمله. ويصير الواجب لذة، وتصبح التضحية غبطة ومسرة. ونرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلماً مخيفاً فإذا هو قد أصبح مزداناً بيَسُوعَ، شمس البرّ، ومغموراً بأشعتها الجميلة.

يتجلّى في أتباع الْمَسِيحِ سمو صفاته وكمال سجاياه. لقد كانت مسرّة الْمَسِيحِ اَِن يفعل مشيئة اللهِ، ولذلك ملكت حياته المحبة لله والغيرة على مجده، بل زانت المحبة جميع أعماله وحلّت في كل تصرفاته. وليست المحبة إلا من اللهِ. فلا يستطيع قلب الخاطئ أن ينشئها أو يبرزها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يَسُوعُ. «نَحْنُ نُحِبُّهُ لأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلاً» ١يوحنا ٤: ١٩. والمحبة مبدأ

العمل في كل متجدد بنعمة اللهِ، تلطف سجاياه، وتقمع أهواءه، وتملك براعته وتستأصل عداوته، وترقق عواطفه. فهذه المحبة، إن عززتها النَّفْس، تزين الحياة وتؤثر تأثيراً جميلاً في كل من يراها.

يتعرض أولاد اللهِ، ولا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطتين يجب أن يكونوا على حذر منهما. أولهما، وقد تقدّم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظناً منهم أنهم يصيرون في وئام مع اللهِ بأعمالهم. والحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدّس بحفظ ناموس اللهِ يطلب المستحيل. فالأعمال التي يقوم بها الإنسان بدون الْمَسِيحِ تتلوَّث بالأنانية والخطية، لأن التقديس إنما هو بالإيمان بنعمة الْمَسِيحِ وحدها.

وأما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقل عنها خطرا. وهي زعم بعضهم أن الإيمان بالْمَسِيحِ قد حرّر المـؤمن من واجب الطاعة لناموس اللهِ، وأنه ليس للأعمال شأن في الفداء لأن الإنسان يصير شريكاً في نعمة الْمَسِيحِ بالإيمان فقط.

ولكنّ الطاعة هنا ليست مجرّد اذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبّة. فإن ناموس اللّهِ يُعَبّرُ عن طبيعة اللّهِ ذاتها. وقد تجسّم في هذا الناموس مبدأ المحبة. ولذلك هو أساس حكم اللّهِ في السَّمَاء وعلى الأرض. فإذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة اللّهِ واستقرت المحبة الإلهّية في النَّفْس، أفلا يتمثل ناموسه في حياتنا؟ ومتى ساد مبدأ المحبة في القلب وتجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في الميثاق الجديد القائل: «أَجْعَلُ نَوَامِيسِي فِي قُلُوبِهِمْ وَأَكْتُبُهَا فِي أَذْهَانِهِمْ» عبرانيين ١٠: ١٦. وإذا كان الناموس مسطوراً على القلب أفلا ينعكس ذلك على الحياة ويشكِّلها وفقاً لمتطلباته؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبّة والولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكِتَاب «فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ مَحَبَّةُ اللّهِ: أَنْ نَحْفَظَ وَصَايَاهُ.» ١يوحنا ٥: ٣. «مَنْ قَالَ قَدْ عَرَفْتُهُ وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ فِيهِ» ١يوحنا ٢: ٤. فالإيمان اذن بدلاً من أن يحرّر الإنسان من واجب الطاعة فإنه، أي الإيمان وحده، هو الذي يجعلنا شركاء في نعمة الْمَسِيحِ التي تقدرنا على تقديم الطاعة الكاملة.

على أنّ الخلاص لا يصير حقاً لنا بالطاعة، إنما الخـلاص هبة مجانية نتقبله من اللهِ بالإيمان، وما الطـاعة إلا ثمـرة الإيمـان. لذلك يقول الرسول: «وَتَعْلَمُونَ أَنَّ ذَاكَ أُظْهِرَ لِكَيْ يَرْفَعَ خَطَايَانَا، وَلَيْسَ فِيهِ خَطِيَّةٌ. كُلُّ مَنْ يَثْبُتُ فِيهِ لاَ يُخْطِئُ. كُلُّ مَنْ يُخْطِئُ لَمْ يُبْصِرْهُ وَلاَ عَرَفَهُ» ١يوحنا ٣: ٥ و ٦. فالطاعة إذن هي المحك الحقيقي. لأن الذي يثبت في الْمَسِيحِ وتملك المحـبة في قلبه تكون ميوله وأعماله وأفكاره وأهدافه مطـابقة لإرادة اللهِ المعلنة في وصايا شريعته المُقدّسة. «أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، لاَ يُضِلَّكُمْ أَحَدٌ. مَنْ يَفْعَلُ الْبِرَّ فَهُوَ بَارٌّ، كَمَا أَنَّ ذَاكَ بَارٌّ» ١يوحنا ٣: ٧. وأما مقياس الـبرّ فهـو نامـوس اللهِ المقدّس الذي أنزله على جـبل سيناء والمتمثِّل في الوصايا العشر.

إذاً، فالإيمان المزعوم الذي يحرّر الناس من التزامات الطاعة لناموس اللهِ، ليس هو في الحقيقة إيماناً، بل تصلّفاً وتطاولاً. صحيح أنّ الرسول بولس يقول إننا «بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ» أفسس ٢: ٨. ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنّ «الإِيمَان أَيْضًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ» يعقوب ٢: ١٧. ولقد أكد يَسُوعُ نفسه وجوب الطاعة

للناموس إذ قال عن نفسه قبل مجيئه إلى هذه الأرض، «أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي» مزمور ٤٠: ٨. وقال أيضاً قبل صعوده إلى السّماء: «أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ» يوحنا ١٥: ٨. وكذلك يقول الرُّوح الْقُدُس على لسان يوحنا: «وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَاهُ: إِنْ حَفِظْنَا وَصَايَاهُ. مَنْ قَالَ قَدْ عَرَفْتُهُ وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ ... مَنْ قَالَ إِنَّهُ ثَابِتٌ فِيهِ، يَنْبَغِي أَنَّهُ كَمَا سَلَكَ ذَاكَ هَكَذَا يَسْلُكُ هُوَ أَيْضاً» ١يوحنا ٢: ٣ - ٦. وقوله على لسان الرسـول بطرس: «فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً تَأَلَّمَ لأَجْلِنَا، تَارِكاً لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطُواتِهِ» ١بطرس ٢: ٢١.

يتبين من هذا أنّ البرّ الكامل للناموس الإلهي أو الطاعة الكاملة، لا تزال هي شرط التمتّع بالحياة الأبدية، كما كانت دائماً منذ عهد أبوينا الأولين، وهما في جنة عدن قبل سقوطهما في الخطية. لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظلّ باب الخطية مفتوحاً على الدوام تتدفق منه سيول البؤس والشقاء، مما يقضي على سعادة الكون بأسره.

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يتحلى بصفات اَلْبِرِّ من خلال إطاعته لناموس اللهِ. ولكنّه عصى فسقط، وبخطيته وُلدنا نحن بطبيعة ساقطة، ولا نستطيع أن نغيّر طبيعتنا فنصير أبراراً، ولا يمكننا، ونحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس مُقدّس. وليس لنا برّ ذاتي به نوفي مطاليب ناموس اللهِ. ولكن الْمَسِيحَ فتح لنا باب النجاة إذ قد عاش على الأرض فتعرَّض لكل ما نتعرض له نحن من تجارب الحياة وشدائدها، وانتصر. فقد عاش بلا خطية ثم مات لأجلنا، وهو مستعد لأن يحمل عنا خطايانا ويهبنا بِرَّه. فإذا أنت سلّمته نفسَك وقبلته فادياً ومُخَلِّصاً لك حُسبت باراً كأنك لم تخطيء قط، إذ إنّ صفاته قد حُسبت لك فصارت صفاتك.

وفضلا عن ذلك، فإن الْمَسِيحَ يغيّر القلب ويحلّ فيه بالإيمان. فعليك أن تحتفظ بصِلتك بالْمَسِيحِ، بالإيمان، وتعمل على إخضاع إرادتك له إخضاعاً مستمراً. وما دمت تفعل ذلك، فإنه يعمل فيك أن تريد وأن تعمل من أجل المسرة، لكى تستطيع أن تقول، «مَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ

نَفْسَهُ لأَجْلِي» غلاطية ٢: ٢٠. ولذلك قال الْمَسِيحُ لتلاميذه، «لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ» متى ١٠: ٢٠. وإذ يكون الْمَسِيحُ عاملاً فيك، تستطيع أن تظهر روحه، وأن تعمل أعماله، أعمال البرّ الفضلى التي هي الطاعة المثلى.

وإذن، فليس لنا في أنفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يُسوِّغ لنا التعاظم لأنّ أساس رجائنا، إنّما هو بِرّ الْمَسِيحِ المحسوب لنا وما يعمله الروح فينا وبنا.

وإذ نتكلم عن الإيمان يجب أن يكون في فكرنا التمييز بين الإيمان الحقيقي ومجرّد التصديق. لأن الشَّيْطانَ نفسه لا يستطيع أن ينكر وجود اللهِ، ولا أن يتجاهل قدرتَه أو يكذّب صدقَ أقواله. كما أثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله، «الشَّيَاطِينُ يُؤْمِنُونَ وَيَقْشَعِرُّونَ» يعقوب ٢: ١٩. إلا أنّ إيمان الشياطين ليس إيماناً للخلاص اذ ليس فيه خضوع لإرادة اللهِ. وأما الإيمان الذي يحدو الإنسان على تسليم قلبه وإرادته لله وتثبيت عواطفه فيه، والاتكال عليه، فهو الإيمان الصَّحيح، الإيمان العامل بالمحبة الذي يطهّر النَّفْس ويجدد في صاحبه صورة اللهِ حتى أنّ القلب،

الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعاً لناموس اللهِ، لأنه أيضاً لا يستطيع، أصبح الآن يبتهج بالشريعة قائلاً مع المُرنِّم: «كَمْ أَحْبَبْتُ شَرِيعَتَكَ! الْيَوْمَ كُلَّهُ هِيَ لَهَجِي» مزمور ١١٩: ٩٧. وهكذا «يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ» رومية ٨: ١ و ٤.

وبين المؤمنين قوم يعرفون محبة الْمَسِيحِ الصفوح ويرغبون في أن يكونوا أولاداً لله، غير أنهم يشعرون بأن حياتهم مليئة بالنقائص والعيوب مما يحملهم على الارتياب من أنهم تجددوا بالرُّوح الْقُدُس. فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيراً ما نلتزم بعد قبولنا الْمَسِيحَ أن نبادر إليه ونرتمي عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا وتقصيراتنا، ولكن علينا أن لا نيأس، لأنّ اللهَ، وإن كان العدو قد غلبنا، لا يرفضنا ولا يهملنا ولا يتركنا. فالْمَسِيحُ عن يمين الآب يشفع فينا. وقد قال يوحنا الحبيب في هذا، «يَا أَوْلاَدِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هَذَا لِكَيْ لاَ تُخْطِئُوا. وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارّ» ١يوحنا ٢: ١. ولا تنسى أيضاً كلمات يَسُوعَ،

«الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ» يوحنا ١٦: ٢٧، وهو يريد أن يردّك إليه ويطبع على حياتك طهارته وقداسته. فإذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك حتى يوم الْمَسِيحِ يَسُوعَ. فلنصِّل بأكثر لجاجة ولنؤمن إيماناً راسخاً. وكلما شعرنا بضعفنا فلنزدد ثقة بقدرة الفادي ولنرتج اللهَ لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا وإلهنا. مزمور ٤٣: ٥.

إننا، كلما دنونا من يَسُوعَ ازددنا شعورا بما فينا من نقائص وعيوب، إذ نرى أنفسنا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي. وما الشعور بالنقص إلا الدليل على أن خدع الشَّيْطانِ قد بدأت تفقد قوتها علينا، وأن الضمير قد بدأ يستيقظ من سباته ويبعث من موته، بفعل الرُّوح الْقُدُس.

ولن تتأصل في قلوبنا محبة يَسُوعَ، ما لم نتحقق من إثمنا ومعصيتنا وندرك خطأنا. ولن نعجب بكمال اللهِ وجماله، ما لم تتجدد قلوبنا بنعمته. فإن كنا لم نَرَ بعد نقصنا الروحي، ولم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البين على أننا لم نعرف الْمَسِيحَ بعد، ولم نَرَ محاسنَه

ومزاياه.

فكلما قلّ تقديرنا لأنفسنا، ازداد تقديرنا لطهارة المُخلّص وجماله اللذين لا حد لهما. وإننا اذ ندرك خطأنا وإثميتنا، نلجأ إلى ذاك الذي يستطيع أن يعفو ويصفح. وإذ نشعر بقصورنا وعجزنا، فإنه يعلن ذاته بقوة. وكلما شعرنا بالحاجة إليه، وإلى كلمته، تجلّت لنا بأكثر وضوح، صفاته الجليلة. وانطبعت في قلوبنا صورته الجميلة.

٨ - النُّموّ في الْمَسيحِ

يُسمّي الكِتاب المُقدَّس تغيير القلب – التغيير الذي به نصير أولاد اللهِ – ولادةً. ويُشبَّه أيضا بنمو الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقله، ويحض الذين تجددوا على أن ينموا «كأطفال مولودين الآن» إلى أن يبلغوا «قياس ملء الْمَسِيحِ» ١بطرس ٢: ٢، أفسس ٤: ١٣، وأن يثبتوا ويثمروا مثل الزرع لأنهم «أَشْجَار الْبِرِّ غَرْسَ الرَّبِّ لِلتَّمْجِيدِ» إشعياء ٦١: ٣. فمن هذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحياة الروحية.

وليس في إمكان الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن ينشئ حياة في أصغر شيء في الطبيعة، لأن مصدر الحياة هو اللهُ، وبه وحده يحيا كل حي. وكذلك أيضا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل اللهِ. وإن لم يولد الإنسان «من فوق» يوحنا ٣: ٣ لا يستطيع أن يكون شريكاً في الحياة التي جاء يَسُوعُ ليهبها للعالم.

وشأن الحياة هو شأن النّمو بالذات، فالذي يجعل

البرعم زهراً ويحول الزهر أثماراً هو اللهُ الذي بقوته يجعل البذر «أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ» مرقس ٤: ٢٨. وقال هوشع النَّبِيّ عن شعب اللهِ إنّهم يزهرون كالسوسن و «يُحْيُونَ حِنْطَةً وَيُزْهِرُونَ كَجَفْنَةٍ» هوشع ١٤: ٥ و ٧. ويأمرنا يَسُوعُ أن نتأمل «الزَّنَابِقَ كَيْفَ تَنْمُو» لوقا ١٢: ٢٧. فإن النبات والزهور لا تنمو باهتمامها، ولا تزهو بعنائها وكدها، ولكنّها تنمو إذ تتقبل من اللهِ ما أعده لنموها. والطفل لا يستطيع بقوته واجتهاده أن يزيد على قامته ذراعاً. وكذلك في الحياة الروحية، لا تستطيع أنت أن تنمو باجتهادك ومجهودك، إن الطفل والنبات ينميان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتَهما — كالهواء النقي وضوء الشَّمْس والطعام. فكهبات الطبيعة تلك بالنسبة للحيوان والنبات، هكذا هو الْمَسِيحُ للواثقين فيه. فهو «نورهم الأبدي» «شَمْسٌ وَمِجَنٌّ» إشعياء ٦٠: ١٩، مزمور ٨٤: ١١- فإنه «لإِسْرَائِيلَ كَالنَّدَى» . «يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ، وَمِثْلَ الْغُيُوثِ الذَّارِفَةِ عَلَى الأَرْضِ» هوشع ١٤: ٥، مزمور ٧٢: ٦. وهو أيضا «الماء الحي» و «خبز اللهِ النازل من السَّماء الواهب حياة للعالم» يوحنا ٦: ٣٣.

فاللهُ إذ أعطى ابنهُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ أِحاط العالم بجو من النعمة كما يحيط الهواء الكرة الارضية. وكل من يختار أن يستنشق هواء هذا الجو المنعش يحيا وينمو إلى قياس قامة ملء الْمَسِيحِ.

وكما تتجه الزهور نحو الشَّمْس لتستمدّ من أشعتها ما يجملها ويكمل تنسيقها، هكذا يجب أن نتجه صوب شمس برّ الْمَسِيحِ الذي يضيء علينا بنوره من السَّمَاء فننمو في حياتنا الروحية حتى نصير مشابهين لصورته.

وهذا عين ما علَّم به يَسُوعُ في قوله: «اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ ... الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ ... هَذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً» يوحنا ١٥: ٤ و ٥. فحاجة الغصن إلى أصل الشجرة لكي ينمو ويثمر هي حاجتك إلى الْمَسِيحِ لكي تحيا حياة البرّ، إذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، ولا قوة لك على مقاومة التجارب أو النموّ في النعمة والقداسة. ولكن إذا ثبتَّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل ولا تكون عقيمة، بل تزهو وتثمر دائماً.

غير أنّ الكثيرين يتصورون أنّ عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو. فقد قبلوا من الْمَسِيحِ غفران الخطية مجاناً، ولذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة وكمال بجهودهم الذاتية. وأمّا كل محاولة كهذه فمصيرها إلى الإخفاق والفشل، كما قال الْمَسِيحُ «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئا» يوحنا ١٥: ٤ و ٥. ففرحنا والحياة الخالية من الاثرة ونمونا في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيَسُوعَ. ولا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة إلا بمحادثتنا يَسُوعَ كل ساعة والثبوت فيه كل دقيقة. فالْمَسِيحية هي الْمَسِيحُ أولاً وآخرا ودائماً وأبداً. فالْمَسِيحُ هو رئيس إيماننا ومكمله إذ يجب أن يكون معنا في أول الطريق وفي نهايتها، بل في كل خطـوة منها، وإلا فنصـيبنا الفشـل. وقد قـال داود في ذلك: «جَعَلْتُ الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ، لأَنَّهُ عَنْ يَمِينِي فَلاَ أَتَزَعْزَعُ»، مزمور ١٦: ٨.

أتسأل، «كيف أثبت في الْمَسِيحِ؟» إنك تثبت فيه بالكيفية نفسها التي بها قبلته أولاً. وهاك ما كتبه الرسول بولس في هذا المعنى، «كَمَا قَبِلْتُمُ الْمَسِيحَ يَسُوعَ الرَّبَّ اسْلُكُوا فِيهِ»

كولوسي ٢: ٦. «أَمَّا الْبَارُّ فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا» عبرانيين ١٠: ٣٨. فقد سلمت نفسك تسليماً تاماً لخدمة اللهِ وطاعته، وقبلت يَسُوعَ مُخلِّصاً لك. لم يكن في مقدورك أن تكفِّر عن خطاياك ولا أن تغيّر قلبك، ولكنك حين سلمته تعالى نفسَك آمنت بأنه أنعم عليك بهذا كله في الْمَسِيحِ. فبالإيمان إذن صرت للمسيح، وبالإيمان يتسنّى لك أن تثبت فيه. إنه لأخذ وعطاء، أنت تعطيه الكل: قلبك وإرادتك وخدمتك، وتأخذ منه الكل: ملء البَرَكَاتِ وحلول الْمَسِيحِ في قلبك ليكون لك قوةً وبرّاً وعوناً أبدياً، فيهبك القدرة على الطاعة الكاملة.

فبكِّر إلى اللهِ في الصباح، وسلم له نفسك جديداً، ولتكن صلاتك إليه: «يا رب إني لك بجملتي، واضع كل تدبيراتي لهذا النهار في يديك لتستخدمني كيفما تشاء. كن معي، ولتكن أعمالي اليوم أعمالك». إن هذا لفرض عليك كل يوم أن تخصص نفسك لله كل صباح لتكون له طول النهار. وسلّمه كل تدبيراتِك لتنفيذها أو لإبطالها كما تشاء عنايته. وهكذا تكون مسلّماً حياتك لله ليصوغها ويصبها في قالب حياة يَسُوعَ فتصير مثله.

الحياة في الْمَسِيحِ هي حياة الراحة، وقد تكون خالية من فرط الشعور بالفرح. ولكن يجب أن يملأها السلام الدائم والثقة الثابتة إذ أنّ رجاءَك ليس في ذاتك بل في الْمَسِيحِ الذي يبدّل ضعفك بالقوة ويهبك عوض جهلك وعجزك الحكمةَ والبأسَ. لا تنظر إلى نفسك ولا تركّز تفكيّرك في ذاتك بل تطلّع إلى الْمَسِيحِ، وتأمّل محبتَه وجمال صفاته وكمالها، وتفكر في إنكاره لذاته واتضاعه وفي طهارته وقداسته وعطفه الذي لا يبارى — تلك هي المواضيع التي ينبغي أن تتأمل فيها النَّفْس. فبمحبتك له وتمثلك به واعتمادك الكلي عليه تتغير الى صورته.

قال الْمَسِيحُ: «اثبتوا فيَّ». ومعنى الثبوت هو الراحة والطمأنينة والاستقرار. ثم دعانا قائلا: «تَعَالَوْا إِلَيَّ ... وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» متى ١١: ٢٨. وكلمات المرنم تعبر عن الفكرة ذاتها: «انْتَظِرِ الرَّبَّ وَاصْبِرْ لَهُ» مزمور ٣٧: ٧. ويؤكد إشعياء إنّه «بِالرُّجُوعِ وَالسُّكُونِ تَخْلُصُونَ. بِالْهُدُوءِ وَالطُّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ» إشعياء ٣٠: ١٥. على أنّ هذه الراحة لا تعني التواني والكسل، لأنّ الْمُخَلِّصَ في دعوته قرن الوعد بالدعوة إلى العمل اذ قال: «اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ ...

فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُم» متى ١١: ٢٩. فبقدر ما يستريح الإنسان في الْمَسِيحِ يكون جدُّه ونشاطُه في العمل لأجلِه.

لكن إذا انصبَّ اهتمامنا على ذواتنا، فلا بد من أن نتحول عن مصدر حياتنا وقوتنا يَسُوعُ، فيبذل الشَّيْطانُ إذ ذاك جهداً جهيداً مستمراً ليبقى نظرنا منصرفاً عن المخلّص فيمنع اتحادنا به ومحادثتنا إياه، ويشغلنا بملذات العالم وهموم الحياة وارتباكاتها وأحزانها وأخطاء الغير، وبأخطائنا نحن ونقائصنا. وهكذا يسعى إلى أن يلهينا عن الْمَسِيحِ. فلنتنبه لئلا يخدعنا بمكائده، لأنه كثيراً ما ينجح في تحويل ذوي الضمائر الحية والرغبة الصادقة في العيش للمسيح، إلى التأمل في غلطاتهم وضعفاتهم أملاً منه في فصلهم عن يَسُوعَ وإحراز الغلبة النهائية. فلا تهتم لنفسك ولا تستسلم للقلق والخوف من جهة خلاصك، لأن هذا كله من شأنه أن يحولك عن مصدر قوتك، بل سلّم نفسك لله واتكل عليه. وليكن حديثك عن يَسُوعَ وتفكيرك فيه إلى أن يغمرك وتنسى نفسك. اطرح عنك كل شك وابعد عنك كل خوف وقل مع الرسول بولس: «أَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ

فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي» غلاطية ٢: ٢٠. توكل على اللهِ فإنه قادر على أن يحفظ وديعتك فإن فوَّضت أمرك إليه يعظم انتصارك بالذي أحبك.

لقد ربط الْمَسِيحُ البشرية بنفسه، باتخاذه الصورة الإنسانية، برباط حبّي لا تنفصم عراه أبداً،إلاّ باختيار الإنسان نفسه. لذلك تجد الشَّيْطانَ دؤوباً في إغرائنا بشتى المغريات لعله يحملنا على قطع هذه الرابطة باختيارنا والانفصال عن الْمَسِيحِ برغبتنا. فمن ثمّ يجب أن نسهر ونجاهد ونصلّي لكيلا يستغوينا غاوٍ على أن نختار سيّداً آخر – فلنا دائما ملء الحرية أن نختار لأنفسنا ما يحلو لنا – فطالما كانت أعيننا مثبتة على الْمَسِيحِ فإنه سيحفظنا، فما دمنا نلتفت إليه نحن آمنون، لا يستطيع أحد أن يخطفنا من يده. وبالنظر إليه باستمرار «نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ» ٢كورنثوس ٣: ١٨.

أجل، بهذه الوسيلة استطاع التلاميذ الأولون أن يتشبهوا بمخلِّصهم العزيز. فهم إذ سمعوا كلماته شعروا

بحاجتهم إليه وإذ طلبوه وجدوه فتبعوه. ورافقوه أثناء جلوسه إلى المائدة في البيت، ولازموه في المخدع وصحبوه إلى الحقول، وكانوا معه كالتلميذ مع المعلِّم يتلقن منه دروساً يومية في قداسة الحق. ونظروا إليه كما ينظر العبد إلى سيده لكي يتعلموا واجبهم، ومع ذلك كانوا أناساً «تحت الآلام مثلنا»، يعقوب ٥: ١٧، يحاربون الخطية كما نحاربها نحن، ويحتاجون إلى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مُقدَّسة.

فحتى يوحنا ذلك التلميذ المحبوب الذي بانت عليه صورة المُخلِّصِ أكمل بيان، لم تكن سجاياه السامية فطرية. فهو لم يكن فقط مدّعياً العظمة وطموحاً إلى الكرامة، بل كان أيضاً متهوّرا شديد الغيظ والغضب إذا أصابه أذى. ولكنه إذ تجلّت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك إلى الإتضاع. إنّ ما رآه يوحنا في حياة ابن اللهِ اليومية من القوة والصبر، من القدرة والرقة، من الجلالة والوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب والمحبّة. فارتكزت عواطفه في الْمَسِيحِ، وتقوَّت يوماً فيوماً إلى أن نسي نفسه واستغرق في حبّ سيده العظيم. فسلّم طبيعته الحادة إليه ليصبّها في قالبه، وليخلق فيه بالرُّوح الْقُدُس

قلباً جديداً، وليغيّر بمحبتِه صفاتِه تغييراً كاملاً شاملاً. إن هذه النتائج تلازم حتماً كل اتحاد بالْمَسِيحِ. فمتى حلّ الْمَسِيحُ ُفي القلب تتغير الطبيعة من أصلها، لأن روح الْمَسِيحِ يليَّن القلب ومحبّته تخضع النفس، فتسمو الأفكار إلى السَّمَاء وتعلو الرغائب إلى اللهِ.

صعد الْمَسِيحُ إلى السَّمَاء ولكنّ تابعيه ما فتئوا يشعرون بحضوره معهم حضوراً شخصياً، يشملهم بمحبته ويُرشدهم بنوره. فبعد أن ذهب عنهم مُخَلِّصهُم الذي سار معهم وتحدّث إليهم وصلى معهم وأحيا فيهم الرجاء وعزّى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم وعلى شفتيه رسالة السلام، رجع إليهم من سحابة الملائكة صدى وعدِه، «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» متى ٢٨: ٢٠. صعد يَسُوعُ إلى السَّمَاء وهو بالهيئة البشرية. وتيقّن التلاميذ أنه أمام عرش اللهِ صديقُهم ومخلِّصهُم. فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحداً من البشرية المتألمة يقدّم أمام الآب استحقاقَ دمه وجروحَ يديه ورجليه تذكاراً للثمن الذي دفعه لأجل مفدييه. وعرفوا أنّه إنما عاد إلى السَّمَاء ليعدّ لهم منازلَ، وأنه سيأتي أيضاً

ويأخذهم ليكونوا معه إلى الأبد.

حين اجتمعوا معاً بعد صعوده، كان شوقهُم عظيماً إلى الصَّلاة باسمه. كانوا يجثون بكل خشوع ويرددون ذلك الوعد القائل: «إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ. إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئاً بِاسْمِي. اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلا» يوحنا ١٦: ٢٣ و ٢٤. وما انفكّوا يرفعون يد الإيمان مرددين هذه الحجة القوية بقولهم إنّ الْمَسِيحَ «الَّذِي مَاتَ بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضاً الَّذِي هُوَ أَيْضاً عَنْ يَمِينِ اللهِ الَّذِي أَيْضاً يَشْفَعُ فِينَا» رومية ٨: ٣٤، حتى حلّ يوم الخمسين. فوافاهم المعزى الذي قال عنه الْمَسِيحُ إنه «يكون فيكم» يوحنا ١٤: ١٧. وواصل حديثه لهم مؤكداً: «إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُ» يوحنا ١٦: ٧. ومنذ ذلك الحين أصبح الْمَسِيحُ يحلّ في قلوب المؤمنين من خلال الرُّوح الْقُدُس حلولاً دائماً، بل أصبح أقرب منهم وأوثق صلة بهم مما كان في أيام حضوره الشخصي معهم. وصارت محبته ونعمته وقوته أكثر تجليّاً في حياة أولاده، حتى أنّ كل من رآهم «تعجّب وتأكد أنهم كانوا من أتباع

يَسُوعَ» أعمال ٤: ١٣.

ما كانه الْمَسِيحُ لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هذه الأيام. ويتضح ذلك من صلاته التي صلاها قائلاً: «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكلاَمِهِمْ» يوحنا ١٧: ٢٠.

وقد صلى لأجلنا وابتهل إلى اللهِ لكي نكون واحدا، كما أنه هو والآب واحد. فقد قال المُخَلِّص عن نفسه: «لاَ يَقْدِرُ الابْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً» يوحنا ٥: ١٩. «الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ» يوحنا ١٤: ١٠. فإذا كان الْمَسِيحُ حالاً في قلوبنا، لا بدّ من أن يعمل فينا لكي نريد و نعمل لأجل المسرة، فيلبي ٢: ١٣. فنعمل كما عمل هو ويتجلّى فينا الروح الذي تجلى فيه. وهكذا إذ نحبه ونثبت فيه «نَنْمُو فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاكَ الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ: الْمَسِيحُ» أفسس ٤: ١٥.

٩ - العمل والحياة

إنّ اللهَ لمصدر الحياة والنور والسّعادة للعالمين، تنبثق مِنّه البَرَكَات لجميع مخلوقاته كما تنبعث من الشَّمْس أشعتها المنعشة وكما تنفجر من العين مياهها الحية. وعندما تملأ حياة اللهِ قلب الإنسان تفيض منه حاملة المحبة والبَرَكَة للآخرين أيضاً.

اغتّبط الْمَسِيحُ أن يفدي الإنسانَ الهالك وتهلل أن يرفعه إلى اللهِ، ولم يحسب حياته ثمينة عنده لإنجاز هذا العمل، بل بذلها «واحْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ» عبرانيين ١٢: ٢. وهكذا الملائكة أيضاً، فإنهم يسعون دائما في إسعاد الآخرين. وفي عملهم هذا يجدون لذة وسروراً. فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المهين له، خدمة التعساء الذين هم دونه أخلاقاً ومقاماً، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة اللهِ الأطهار. إن روح الْمَسِيحِ المُنكرة لذاتها في أعمال المحبة للغير هي الروح التي تسود السّماء وهي جوهر سعادتها. وستتصف أعمال أتباع الْمَسِيحِ بالروح ذاتها.

متى حلّت محبة الْمَسِيحِ في القلب تكون فيه كالمسك الذي لا تخفى رائحته. فتأثيره المُقَدَّس سيشعر به كل مَن نحتك بهم. ومتى ساد روح الْمَسِيحِ في القلب يكون فيه كالعين في القفر تفيض مياهها لتنعش المعيي وتولّد فيه الشوق إلى الاستقاء من ينبوع الحياة الأبدية.

مِن مظاهر المحبة ليَسُوعَ أن يسعى المُحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس ومن خصائصها أن تبدي العطف والشفقة والمؤاساة لكل مَن تشمله العناية الإلهية الأبوية.

لم يعش المُخلِّص على الأرض عيشة الاسترخاء والراحة. ولم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته جهاداً دائماً ونضالاً دائباً لخلاص المنكوبين الهالكين. ولم يعرف من المذود إلى جلجثة إلاّ التضحية وإنكار النَّفْس، فلم يطلب يوما العفو من واجب مضنٍ، ولم يحاول التخلّص من مشقاتِ السَّفر، ولم يهرب من عمل شاق، إذ إنّه «لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» متى ٢٠: ٢٨. فالخدمة كانت غاية حياته العظمى والوحيدة. وما عداها كان ثانوياً ومما يستخدم في سبيل بلوغ الغاية

المنشودة. ولم يكن من شيء ليشبع نفسه ويروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى إنَّ حياته خلت من الأثرة ومحبة الذات خلواً تاماً مطلقاً.

كل مَن يقبل نعمة الْمَسِيحِ فمثْلُه يكون على استعداد للقيام بأيةِ تضحيةٍ حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يَسُوعُ أن يشتركوا في قبول الهبة السَّمَاوية. هو يسعى أيضاً إلى جعل العالم مكاناً أفضل للعيش فيه. فمثل هذه النمو الأكيد هو الثمرة الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي. وهو ما أن يُقبل إلى الْمَسِيحِ حتى تتولد في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجده في شخصه الكريم. وفي إعلان الحق الذي خلَّصه وقدَّسه والذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه. لأن الذي قد لبس بِرّ الْمَسِيحِ وامتلأ قلبُه من فرح الروح لا يستطيع السكوت عما اختبره بعد أن ذاق وعرف «ما أطيب الرب» مزمور ٣٤: ٨. وكما فعل فيلبس الذي إذ وجد الْمَسِيحَ ذهب تواً وفتش عن نثنائيل ودعاه قائلاً: «تعال وانظر» يوحنا ١: ٤٦، كذلك يحاول كل متجدد أن يدعو الآخرين إلى حضرته ويعرض عليهم فضائل الْمَسِيحِ وأن يعرِّفهم بغنى العالم غير المنظور. وهو في

ذلك يشتاق اشتياقاً عظيماً إلى أن يرى الجميع فيه «حَمَل اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ» يوحنا ١: ٢٩.

لا شكّ في أن كلّ مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبَرَكَات المضاعفة حسب قصد اللهِ من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء. وقد وهب تعالى للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية وأن يعملوا، هم بدورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البَرَكَة. إنّ هذا لأسمى شرف وأعظم فرح يستطيع اللهُ القدير أن يجود بهما على البشر. فالذين يشاركون اللهَ في أعمال المحبة هم إليه أقرب المقربين.

كان من الممكن أن يسندَ اللهُ الكرازةَ بالإنجيل إلى الملائكة السَّمَاوية وأن يكل إليهم أمر توزيع بَرَكَات المحبة، أو أن يستخدمَ وسيلة أخرى من الوسائل المتوافرة لديه لإنجاز مقاصده. ولكنّه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه ومع الْمَسِيحِ والملائكة ليكون لهم نصيب وافر من البَرَكَات والأفراح والرفعة الروحية التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة.

ومن بَرَكَات الشركة في آلام الْمَسِيحِ أنها تولّد في القلب

عطفاً مع الْمَسِيحِ، فالتضحية في الخدمة لخير الآخرين تقوّي الإنسان على الجود والإحسان وتوثّق صلته مع فادي الأنام الذي «افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» ٢ كورنثوس ٨: ٩. وما لم نتمم قصد اللهِ في خلقنا لا تكون الحياة بَرَكَةً لنا.

إنْ خصصت نفسَك لعمل كل ما يريده الْمَسِيحُ من تلاميذه، وسعيت إلى ربح النفوس الهالكة، لا بدّ من أن تشعر بحاجة إلى اختبارٍ أنجع ومعرفةٍ أوسع في الأمور السّماوية، لأنك تجوع وتعطش إلى البرّ وتتوسل إلى اللهِ أن يقوي إيمانك ويسقيك جرعات أغزر من ينبوع الخلاص. وأما المقاومة والصعاب التي تلاقيها، فإنها تقودك إلى درس كلمة اللهِ وإلى المداومة على الصَّلاة، فتنمو في نعمة الْمَسِيحِ ومعرفته وتسعد باختبارات ثمينة غنية.

إنّ التضحية في العمل لأجل الغير، التضحيةَ الخالية من الأَثَرَة، لتُكسب الأخلاق عمقاً وثباتاً وجمالاً مسيحياً. وتملأ القائم بها سلاماً وسعادة، وترفع الأماني وتطهرها ولا تترك مجالا للتراخي والأنانية. إن من شأن الفضائل الْمَسِيحية أن تنمي قوى ممارسِها للعمل من أجل الرَّب، وتمنحه بصيرة

ثاقبة وإيماناً وطيداً متزايداً وقدرة مقتدرة في الصَّلاة. فالرُّوح الْقُدُس، إذ يعزف على أوتار النَّفْس يُخرج منها نغماً يتجاوب مع النغمة الإلهية. وأولئك الذين يقفون حياتَهم على السعي المضحي إلى نفع الآخرين، إنّما هم في الواقع يعملون على خلاص أنفسهم.

على أنّ الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشتغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، وأن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة مَن هم في حاجة إلى معونتنا. فإنما تتزايد قوتنا، بالمران والعمل، لأن النشاط هو مِن مستلزمات الحياة وضروراتها. إن أولئك الذين يسعون إلى المحافظة على الحياة الْمَسِيحية بقبولهم البَرَكَات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئاً لأجل الْمَسِيحِ، مثلهم كمثل من يحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. مثل هذا التصرف ينتج عنه دائماً الانحطاط والتدهور في كل من العالم الروحي والطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضاءه لا بد من أن يفقد القدرة على استعمالها. والْمَسِيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة

له مِن اللهِ لا يتوقف فقط عن النموّ في الْمَسِيحِ، بل أيضا يفقد القوة التي كانت له.

وقد جعل اللهُ كنيسة الْمَسِيحِ أداة لتخليص البشر، ووكل إليها مهمةَ تبليغ الإنجيل في كل أنحاء العالم. فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق الْمَسِيحيين أجمعين، ويتعيّن على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما تيسر له من الفرص والمواهب. إن المحبة التي أعلنها لنا الْمَسِيحُ، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المُخَلِّـصَ بعد، إذ إن اللهَ قد وهبنا نوراً، لا لكي نحتفظ به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين.

فلو أنّ اتباع الْمَسِيحِ كانوا متنبهين لواجبهم وحريصين على آداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في البلاد الوثنية يعُدّون بالألوف بدلاً من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم. ولكان أولئك الذين لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل الكرازي بأنفسهم يخدمون قضية الْمَسِيحِ بأموالهم وعطفهم وصلواتهم، ولوجدنا في البلدان الْمَسِيحية، غيرة أكثر واجتهاداً أوفر لربح النفوس.

ولسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم الْمَسِيحَ، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه من أجل الْمَسِيحِ. فنستطيع أن نخدم ونحن في المحيط العائلي وفي الكنيسة، كما نستطيع أن نخدم أيضا بين من نخالطهم ونزاملهم ونعمل معهم.

قضى مُخلِّصُنَا الشَّطرَ الأكبرَ من حياتِه وهو يعمل في حِرْفَة النّجّارة بمدينة الناصرة، وقد كانت الملائكة تخدمه، وهو يسير جنباً إلى جنب مع الفلاحين والعمال الذين لم يلقوا عليه بالاً ولم يعيروه التفاتاً مع أنه رب الحياة. وكان يؤدي رسالتَه بكل صبرٍ وأمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يؤديها وهو يشفي مريضاً، أو وهو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج. وهكذا يمكن كل إنسان أن يكون في خدمة يَسُوعَ، وهو يمارس أوضعَ الحرف وأحقرَ الأعمال.

ولذلك يقول الرسول بولس: «مَا دُعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلْيَلْبَثْ فِي ذَلِكَ مَعَ اللهِ» ١كورنثوس ٧: ٢٤. فالتاجر يستطيع أن يدير عمله بكيفية تمجّد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله. واذا كان تابعاً أميناً للمسيح، فسيجعل ديانته

تتخلل كل معاملاته، ويظهر روح الْمَسِيحِ في كل تصرفاته. والصانع يمكنه أن يكون مُجِدّاً وأميناً، ممثلاً سيده الذي كان يكدح مؤدياً رسالته في أبسط الأعمال وأصغرها بين تلال الجليل. وهكذا يجب على كل من يُسمّي اسم الْمَسِيحِ، أن يؤدي عمله على الوجه الذي يقود فيه الآخرين إلى تمجيد خالقهم وفاديهم.

غير أنّ الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة أنّهم ليسوا كغيرهم ممَّن خصَّهم اللهُ بمزايا عظمى، ومواهب ممتازة. حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأنّ التكريس للخدمة يستلزم كفاءاتٍ نادرة ومؤهلات خاصة لا تتوافر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصَّهم اللهُ دون سواهم بالمساهمة في الخدمة والجزاء. ولكن هذه الفكرة لا تتفق والمثل الذي ضربه الْمَسِيحِ اذ أوضح أنّ ربّ البيت دعا عبيده وأسند إلى كل واحد منهم عملَه الخاص.

فإن كان لنا روح المحبة، يمكن أن نؤدي أحقرَ واجباتِ الحياة، «من القلب كما للرب»، كولوسي ٣: ٢٣. وإذا كانت محبة اللهِ في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا

رائحة الْمَسِيحِ الزكية، ويكون تأثيرنا في الآخرين عاملاً على رفعتهم وإسعادهم.

فما عليك أن تنتظر حتى تتهيأ لك فرص عظيمة، وتحصل على مواهب خارقة العادة لكي تستطيع أن تخدم اللهَ. يجب ألا تكون مشغولاً بما يفتكر به العالم عنك، لأنه إذا كانت حياتك تشهد بطهارة إيمانك، وإخلاص بواعثك، وشدة رغبتك في خدمة الناس ونفعهم، فإن جهودك لن تضيع هباء.

وهكذا يستطيع أفقر إنسان وأحقر مخلوق من تلاميذ يَسُوعَ أن يكون بَرَكَة للآخرين. وقد لا يشعر بأنه يأتي عملاً يُذكر في هذه الحياة، ومع ذلك فإنه بتأثيره الخفيّ يحدثُ نتائجَ بعيدةَ المدى، إذ تتبارك، بسبب حياتِه وقدوتِه جموع غفيرة من الناس. وربما يظلّ غير شاعرٍ بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي يكافأ من اللهِ. فأمثال هذا لا يشعرون أو يعرفون أنهم يقومون بأي عمل عظيم، فليس المطلوب منهم أن يقلقوا بالنسبة لنجاحهم، وإنما عليهم فقط أن يسيروا في هذه الحياة قُدُمَاً، مؤدين عملهم في هدوء وأمانة، بحسب الدعوة التي

دُعوا إليها، فهؤلاء لن يضيّعوا حياتَهم سدى، بل هم سيظلون في نموّ مطّرد حتى يصبحوا مشابهين لصورة الْمَسِيح ومثاله. وإذ هم عاملون مع اللهِ في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يهيئون أنفسَهم لذلك العمل الأسمى، والفرح الخالص المُعدَّين لهم في الحياة الأخرى.

١٠ - التَّعرُّف باللهِ

كثيرة هي الطرق التي بها يسعى اللهُ ليقودنا إلى معرفته، وإلى الوئام والشركة معه. وتناجي الطبيعة مدركاتنا آنَاء الليل وأطراف النهار. ويتأثر القلب المفتوح بمجد اللهِ كما تعكسه أعمال يديه. وتسمع الأذن الصاغية وتدرك همسات اللهِ من خلال الطبيعة ذاتها. فكأنّي بالحقول الخضراء والأشجار الباسقة، وبالسّحب المارة والأمطار السّارة، وبخرير السّيل وجمال مجد السّماء تحدثنا عن خالقها وتدعونا إلى التعرّف به.

لقد مثّل مخلِّصُنا تعاليمَه بما في الطبيعة، وقارن الحقائق الأبدية الثمينةَ التي نطق بها بالأشجار والأطيار وبزهور الوديان والتلال وبالبحيرات الرائقة والسّماوات الرائعة، وألحقها بحوادث الحياة العادية وأحوالها اليومية لكيلا تغرب عن ذاكرة سامعيه بل يتّعظوا بها وسط انهماكات الحياة وأتعابها الكثيرة.

يريد اللهُ أن يستمتع أولاده بحسن صنعته ويبتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زيّن به مسكننا الأرضي

هذا، لأنّ اللهَ يحب الجمال، ولاسيما جمال الأخلاق الذي يفضله على كل زينة خارجية مهما كانت. ويشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالاً كجمال الزهور الهادئ العجيب.

لو تأملنا أعمال اللهِ لتعلّمنا منها دروساً ثمينة في الطاعة له والاتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتها المتسعة المعينة لها، وكل ما في الكون من ذرّات صغيرة أيضاً، تطيع إرادة خالقها وهو يعتني بها ويقوم بحاجتها، وإنّ الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أيضا بالعصافير التي تغرّد تمجيداً لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن عليه في المخدع وفي أثناء رقاده وحين قيامهِ من النوم، وإنّه لا يفتأ يراقب الغنيَّ إذ يولم في قصره الولائمَ الفاخرةَ كما يراقب الفقيَر إذ يجمع أولادَه حول مائدتِه البسيطة ليقاسمهم خُبزَه الحاف. فليس من دمعة تذرف إلا ويراها اللهُ، وليس من ابتسامة إلا ويلاحظها بشوقٍ واهتمام.

لو آمنا بهذه القدرة ووثقنا بهذه العناية لطرحنا عنّا كل

اهتمام زائد ولأبعدنا عنّا كل خيبة أمل، بل وتركنا جميع أمورنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيّره كثرة العناية ولا يثقله تعب الرعاية. ولكنّا نُمتّع نفوسَنا بالراحة التي طالما اشتقنا إليها.

إذ تبتهج مداركَك بجمال الأرضِ الخَّلابِ اجتهد أن تتصوَّر في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية ولا تمتد إليها سلطة الموت ولا يظهر عليها ظلّ اللعنة. ثمّ إذا بلغت الحدّ في تصورك اعلم أنها ستكون أجمل وأمجد بكثير من كل تصوراتِك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوع عطايا اللهِ في الطبيعة إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» ١كورنثوس ٢: ٩.

قد يفصحُ الشّعراء في وصف جمال الطبيعة ويبالغ العلماءُ في الكلام عن غرائبها. وأما الذي يتمتع بها تمتعاً مشبعاً فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يدِ أبيه ويميّز دلائل حبه تعالى في زهورها وأشجارها وأثمارها. وأما الذي لا يميّز محبة اللهِ في النجاد والوهاد، وفي الأنهر والأبحر، فلا يعرف

معناها ولا تناجيه بما تكنّه له من محبة وعناية.

يكلِّمنا اللهُ أيضاً في عنايته بنا ويناجينا بفعل روحه القدوس فينا. فإنّ حوادث عنايته والتقلّبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنَّا لها، لتعلّمنا عن محبة بارينا. قد أنشد المرنم في ذلك واصفاً العناية الإلهية الدائمة فقال، «امتلأت الأَرْضُ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ» و «مَنْ كَانَ حَكِيمًا يَحْفَظُ هذَا، وَيَتَعَقَّلُ مَرَاحِمَ الرَّبِّ» مزمور ٣٣: ٥؛ ١٠٧: ٤٣.

يخاطبنا اللهُ كذلك في كلمته المُنزلة، وفيها يعلن صفاتِه بصيغة واضحة جلية إذ يعرّفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان ويسرد أمامَنا تاريخ الآباء والأنبياء القديسين الذين كانوا «تَحْتَ الآلاَمِ مِثْلَنَا» يعقوب ٥: ١٧. وجاهدوا في أحوال كأحوالنا الصعبة، وولّوا هاربين مُنهزمين مثلنا، ثم عادوا وتشجعوا وانتصروا بنعمة اللهِ. ونحن إذ نراهم نتشجع أيضاً في سعينا وراء البِرِّ. وإذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة وتمتّعهم بالنور والمحبة والبَرَكَة، وعن العمل الذي قاموا به بنعمة اللهِ وعن الروح الذي أظهروه، يُضرم في قلوبنا لهيب الاشتياق إلى أن نقتدي بهم وأن نكون مثلهم وأن نسير مع اللهِ كما ساروا معه.

قال يَسُوعُ عن كُتُب العهد القديم إنَّها «هِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي» يوحنا ٥: ٣٩. وما قاله عن العهد القديم يصدق بالأحرى عن كُتُب العهد الجديد، لأنّ الكِتَاب المُقَدَّس كلّه لا يخبرنا إلا بالفادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك عديم الأمل في الحياة. نعم، إنّ الْمَسِيحَ هو موضوع إعلان الكِتَاب. فمن الكلمة الأولى، «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ» تكوين ١: ١ إلى الأخيرة «هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا» رؤيا ٢٢: ١٢ لا تقرأ إلا عن أعماله ولا تسمع إلا صوتَه، فإذا أردت أن تتعرَّف بيَسُوعَ عليك بقراءة الكُتُب المُقدَّسة.

املأ قلبَك إذاً بكلمة اللهِ، لأنها الماء الحيّ الذي يروي لظى عطشِك. كما أنها الخبز الحيّ من السّماء الذي يشبع فرط جوعك. ولقد صرَّح يَسُوعُ بذلك قائلاً: «إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ» يوحنا ٦: ٥٤. ثم أردف موضحـاً معناه «اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» عدد ٦٣. فكما أن أجسادنا تتغذى وتُبنى مما نتعاطاه من مأكل ومشرب، كذلك أرواحنا أيضاً، فإنها تستمد قوة وشجاعة مما نتأمل فيه من الأمور

الروحية الأبدية.

إنّ موضوع الفداء العجيب لمسألة «تَشْتَهِي الْمَلاَئِكَةُ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَيْهَا». وهو سيكون موضوع دراسة المفديين وموضوع ترنمهم وتهللهم مدى الدهور الأبدية. اذاً، أفليس هو الآن جديراً بالتفكير العميق والاعتبار الجدّي الدقيق؟ بلى، لأن محبة الْمَسِيحِ ورحمته وتضحيته العظيمة من أجلنا لتستلزم أعمق التأمل وأوفر التفكير. يجب أن نطيل التبصّر في صفات فادينا وشفيعنا ونديم النظر في رسالة ذاك الذي أتى ليُخَلِّصَ شعبه من خطاياهم. فإن التأمل في هذه المواضيع السّماوية يقوي محبتَنا ويزيد إيمانَنا ويملأنا ثقة ومحبة. فتصعد صلواتُنا إذ ذاك مقبولةً عند اللهِ لأنها تصدر عن ذهن مستنير وعاطفة مضطرمة وثقة ثابتة بيَسُوعَ واختبارٍ حيّ في قوته القادرة أن تخلّص «إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ» عبرانيين ٧: ٢٥.

عندما نتأمل مليّاً في كمالات المُخَلِّص يتولّد فينا شوقٌ شديدٌ إلى تغييرٍ كاملٍ وتجديدٍ شاملٍ لنشترك في قداسته وطهارته. ذلك لأننا نزداد جوعاً وعطشاً إلى التشبّه به، حتى إذا صار الفادي الموضوع الشاغل في أفكارنا نلهج به في

كلامنا ونظهره للعالم في حياتنا وأعمالنا.

هذا وليس الكِتَاب المُقدّس للعلماء فقط، بل قد خُصِّص أيضا لعامة الناس وجاءت فيه الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وضوح الشَّمْس في رائعة النهار حتى لا يخطئ أحد الطريق ولا يضلّ عن سواءِ السبيل إلاّ من استقلّ برأيه وحاد عمداً عن مشيئة اللهِ المعلنة الجلية.

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكِتَاب المُقَدَّس، بل يجب أن نطالعَ كلمة اللهِ بأنفسِنا. إنّ اتكالنا على دراسة غيرنا يشلّ نشاطَنا ويُميت مواهبنا ويُضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهوداً عظيماً متواصلاً. واذا حدث ذلك نفشل في إدراك معنى كلمة اللهِ. إنّ العقل إذا استُعمل في درس مواضيع الكُتُب المُقدّسة وفي مقابلة الآية بالآية ومقارنة الروحيات بالروحيات ليتَّسِعَ اتساعاً عجيباً بيَّناً.

ليس ما يقّوي الإدراك مثل درسِ كلمة اللهِ، وليس ما يرفع الأفكار ويكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المهذبة. فلو درس الإنسان الكلمةَ كما

يجب لوجد فيها سعة عقلٍ وسموَ أخلاقٍ وثباتَ عزمٍ قلما نراها في هذه الأيام.

على أنّ الفائدة من قراءة الكِتَاب المُقَدَّس قراءةً عاجلةً بدون تروٍ ضئيلة جدا. قد يقرأ المرء الكِتَابَ كله، من التكوين إلى الرؤيا، ولا يرى شيئاً من جماله ولا يسبر شبراً من غوره. وأما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط إلى أن يدرك معناها ويفهم مغزاها في تدبير الخلاص، فإنه يستفيد أكثر بكثير مما لو تلا فصولاً عديدة دون هدف ولا منفعة. إذن خذ كتابك معك واقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، واستذكر آياتِه التي تقرأها لأنه من الممكن أن تتأمل في الآيات وأنت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك.

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا إذا أعرنا الكِتَاب المُقَدَّس التفافاً جدّيّاً ودرسناه دراسة مصحوبة بالصَّلاة. لأنه، وإن كان في الكِتَاب فصول لا يخطئ أحدّ في فهمها، إلا أنّ فيه أيضاً فصولاً ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمها لأول وهلة، فيجب إذن مقارنة الآيات بالآيات مع توخّي الدقة في البحث والتعمق في التفكير والصَّلاة. وبذلك تعود علينا دراسة الكِتَاب المُقَدَّس بالخير العميم والنفع

الجزيل. فكما يبحث المُعَدِّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقّب في كلمة اللهِ عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عظمى مما قد أُخْفي عن عيون كثيرين من الذين يقرأون الكِتَاب قراءة سريعة. فإنّ كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا وتدبرناها، كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة.

وحذار من الإقدام على دراسة الكِتَاب دون أن تستعين بالصَّلاة. فقبل أن تتصفحه، يجب أن تطلب الاستنارة من الرُّوح الْقُدُس. ومتى طلبت فلا بد من أن تنال. إن يَسُوعَ حين رأى نثنائيل مقبلاً إليه قال عنه: «هُوَذَا إِسْرَائِيلِيٌّ حَقّاً لاَ غِشَّ فِيهِ. فقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ، مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟ أَجَابَ يَسُوعُ وقال له قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ رَأَيْتُكَ» يوحنا ١: ٤٧ و ٤٨. فيَسُوعُ الذي رأى نثنائيل وهو يصلّي تحت التينة يراك أيضا وأنت تصلّي في مخدعك إن كنت تتلّمس منه النور لمعرفة الحق، بل إنّ ملائكة النور أنفسهم سيرافقونك ويأخذون بيدك إن كنت تطلب الهداية والإرشاد بروح الاتضاع والانقياد.

إنّ عمل الرُّوح الْقُدُس هو أن يعظّم المُخلّص ويمجّدَه،

إذ إن الرُّوح هو الذي يقدّم لنا الْمَسِيحَ وبِرَّه وخلاصَه كما قال يَسُوعُ عنه «ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ» يوحنا ١٦: ١٤. فإنما روح الحق دون سواه هو المعلّم المؤثّر الفعّال الذي يستطيع أن يعلّمنا الحق الإلهي.

ما أعظم تقدير اللهِ لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنَه ليبذل حياتَه لأجلنا. ووهبنا الرُّوح الْقُدُس ليكون معلمَنا ومرشدنا الدائم.

١١ - امْتِيازُ الصَّلاة

نعم، يكلّمنا اللهُ في الطبيعة والوحي، ويناجينا بأعمال العناية وبتأثير الرُّوح الْقُدُس فينا. لكنّ هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة وقوّة روحّيتان، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، ونحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله ومراحمه وبَرَكَاته دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي. ولكي يكون بيننا وبين اللهِ تحادث يجب أن نخبره، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيات.

إن الصَّلاة هي فتح القلب للهِ كما لو كنا نكلّم صديقاً حميماً، وليست هي ضرورية لِنُعْلِمَ اللهَ بما نحن عليه، ولكنّها ضرورية لأنّها تمكننا نحن مِن قبول نعمته، إذ إنّها لا تُنزل اللهَ إلينا ولكنّها ترفعنا إليه تعالى.

علَّم يَسُوعُ تلاميذَه كيف يصلّون وأرشدهم إلى أن يعرضوا حاجاتهم اليومية لله، ويُلقوا كل همهم عليه. وأكدّ لهم أن طلبتهم تُستجاب، وما قاله لهم قاله لنا نحن أيضاً.

ويَسُوعُ نفسه، وهو حَالّ بين الناس، كان يصلّي كثيراً. فإذ اتحد بِنَا، وصارت حاجاتُنا حاجاتِه وضعفاتُنا ضعفاتِه، تضرّع إلى الآب لينال منه قوةً جديدةً وليخرج متشدّداً لمواجهة واجبات اليوم وتجاربه. وهو في كل شيء مثالنا، كما أنه أخ لنا في ضيقاتنا، «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا» عبرانيين ٤: ١٥، ولكنّه مع ذلك هو القُدّوس الذي نفرت طبيعته من الاثم، وقاسى صراعاً وعذاباً أليماً وهو في عالَم الخطية، فأصبحت الصلّاة ضرورية له في طبيعته البشرية، بل لذّة وامتيازاً. ووجد في التحدّث إلى الآب فرحاً وعزاء. فإذا كان مُخلّص الناس، ابنُ اللهِ الحبيب، قد شعر بحاجةٍ إلى الصّلاة، فكم هو أجدر بنا نحن الضعفاء والأثمة المائتين أن نشعر بحاجتِنا إلى الصّلاة الحارّة المستديمة.

يترقب أبونا السَّمَاوي الفرص ليغمرنا بكامل بَرَكَاته. إنّه لمِن ميزاتنا أن نشرب جرعات مشبعة مِن ينبوع محبته، فما أغرب قلة صلواتِنا إليه. إنّ اللهَ لمستعد وراضٍ أنْ يسمع الصّلاةَ الخالصةَ الصاعدةَ من أوضع أولاده، ومع ذلك نرى بيننا تردداً ظاهراً في إعلامه حاجاتِنا. وماذا يظنّ الملائكة في أناسٍ مساكين ضعفاء مُعرّضين لتجارب قوية، وهم على

رغم ذلك لا يُصلّون إلا قليلاً، ولا يؤمنون إلا يسيراً! وأما اللهُ فإنّه مشتاق إليهم، راغب في أن يهبهم أكثر جداً مما يتصورون. وها الملائكة يُسرّون بالسجود أمام اللهِ ويحبون القرب منه تعالى ويتلذذون بالتحادث إليه، ولكن أولاد آدم، وهم في مسيس الحاجة إلى عونه تراهم مكتفين بأن يسلكوا بدون نور الرُّوح الْقُدُس وبدون مرافقته لهم وحضوره معهم.

يخيِّم الشرير بظلامه على أولئك الذين يهملون الصّلاة، ويغريهم على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون امتيازاتهم التي أنعم بها اللهُ عليهم في الصّلاة. ولماذا يحجم بنو اللهِ عن الصّلاة وهي المفتاح في يد الإيمان به يفتحون خزائن السّماء المذخّر فيها وفور غنى القادر على كل شيء؟ وإن لم ندأب في الصّلاة ونجاهد في السهر نعرّض أنفسنا لخطر الإهمال ثم الحيدان عن الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم، لأن العدو يسعى سعياً متواصلاً فيضع العراقيل في الطريق المؤدي إلى عرش النعمة. وهو يمنعنا من الحصول على النعمة والقوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان والصّلاة.

أجل يشترط اللهُ شروطاً معينة لا بدّ من إيفائها ليستمع لدعائنا ويستجيب لطلباتنا. أولها أن نشعر بحاجتنا إلى معونته، فقد وعد قائلاً: «أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ» إشعياء ٤٤: ٣. فالذي يجوع ويعطش إلى البرِّ ويشتاق إلى اللهِ، لا بدّ من إشباعه، ولكن يجب أن يكون قلبه مفتوحاً لتأثير الرُّوح الْقُدُس وإلا فالبَرَكَة لا تأتيه.

إنّ أقوى حججنا لنيل البَرَكَات هي حاجتنا إليها عيناً، فإنها تشفع فينا بأفصح العبارات. إلا أنه يجب علينا أن نطلب من اللهِ أن يعمل لأجـلنا، كما قال: «اطْلُبُوا تَجِدُوا» متى ٧: ٧، و «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ» رومية ٨: ٣٢.

إن راعينا إثماً في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمع لنا الرَّب، ولكنه في كل وقت يقبل صلاة النَّفْس التائبة المنسحقة. عندما نصلح كل الأخطاء المعلومة، يحق لنا أن نؤمن بأن الرَّب قد سمع وأنه ليستجيب صلواتنا. لا يمكننا أن نرضي اللهَ باستحقاقاتنا إذ لا يمكننا أن نَخْلُصَ إلا باستحقاقات الْمَسِيحِ وحدها. فدمه الثمين هو الذي يطهرنا. ومع ذلك فعلينا واجب نقوم به

لإيفاء شروط القبول. عامل آخر للصّلاة المنتصرة هو الإيمان «لأَنَّهُ يَجِبُ أَنَّ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ» عبرانيين ١١: ٦. وقد قال الْمَسِيحُ لتلاميذه «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. فهل نعتمد على كلمته؟ والتأكيد هنا واسع وغير محدود، لأنه أمين هو الذي وعد. وحتى إن كنا لا نحصل على الأشياء التي طلبناها بالذات، وفي الوقت الذي تقدمنا بطلبنا إليه، فمع ذلك، علينا أن نؤمن بأن الرَّب يسمع وسوف يستجيب لصلواتنا. لأننا ونحن خطاة قصار البصر، كثيرا ما نطلب ما هو لضررنا، وأما أبونا السَّمَاوي فحباً لنا ورفقا بِنا يستجيب صلواتنا بأن يعطينا ما هو لخيرنا الأكبر وما كنا لنطلبه لأنفسنا لو استنيرت أذهاننا وعرفنا الأمور على حقيقتها. فعندما يبدو لنا أن صلواتنا غير مستجابة يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يأتي وقت الاستجابه وننال البَرَكَة التي نحن في أشد الحاجة إليها. وأما الادّعاء بأن صلواتنا تستجاب بالكيفية التي نعيِّنها نحن وفي الشيء نفسه الذي نطلبه فهو تطفّل، بل تصلّف، لأن اللهَ أحكم من أن يخطئ وأصلح

من أن يمنع خيراً عن السالكين بالكمال. فلا تخشَ الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فوراً عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل «اسْأَلُوا تُعْطَوْا».

أما اذا أخذنا بمشورة شكوكنا، وسرنا على رأي مخاوفنا، وأردنا أن نحلّ كل معضلة قبل أن نؤمن باللهِ، فلا نزداد إلا حيرة وارتباكاً. ولكن إذا أتينا إليه شاعرين بنقصنا وقصر باعنا، وبإيمان وديع وثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السّماء وعلى الأرض ويرى كل ما في الخليقة ويسيّر كل شيء بكلمته وبحسب إرادته، فهو القادر أن يسمع دعاءنا وينير قلوبنا. وهكذا بصلواتنا المُخلِصَة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء. وقد لا نرى دليلاً قاطعاً على أنّ المُخَلّصَ يحنو علينا ويحبونا برحمته ومحبته، وقد لا نحسّ بلمسة يده على جباهنا في رفق وحنان، ومع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة.

وإذ نأتي إلى اللهِ لنطلب مِنْه رحمة وغفراناً يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح والمحبة للآخرين. وكيف يمكننا أن نصلي قائلين: «وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» متى ٦: ١٢ ومع ذلك ننغمس في روح الانتقاد

وعدم الإغضاء؟ فإنه على قدر ما نتوقع أن يسمع لنا ويسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين ونسامحهم.

جعل اللهُ المثابرة على الصَّلاة شرطاً لاستجابتها، فقد أمرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان ونتقدم في الاختبار. فأمر أن نواظب «عَلَى الصَّلاَةِ»، وأن نسهر «فِيهَا بِالشُّكْرِ»، ونتعقل ونصحو «لِلصَّلَوَاتِ»، و «فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ»، و «انتم أيها الأحباء ... مصلين في الرُّوح الْقُدُس ... احفظوا أنفسكم في محبة اللهِ»؛ رومية ١٢: ١٢؛ كولوسي ٤: ٢؛ ١بطرس ٤: ٧؛ فيلبي ٤: ٦؛ يهوذا ٢٠ و ٢١. في المواظبة على الصّلاة تتحد النّفْس باللهِ اتحاداً لا تنفصم عراه، فتجري حياة من اللهِ إلينا، وترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا وقداستنا.

إن المثابرة على الصّلاة لضرورية حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء. ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيَسُوعَ، واغتنم كل فرصة تسنح للذهاب إلى حيث تجري العادة أن تكون صلاة.

إنَّ الذي يطلب محادثة اللهِ تراه في اجتماع الصّلاة قائماً بواجبه، مهتماً به، مجدّاً في الحصول على كل بَرَكَة وفائدة، ملتمساً أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السّماوية.

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، ولكن الصّلاة الانفرادية هي أكثر الصلوات إحياء للنَّفْس وقوة لها. فإذا ما أُهملت تذبل النَّفْس ولا تستطيع أن تزهو وتثمر. ولا تغني الصّلاة العائلية أو الصَّلاة العمومية في المجتمع عن الصَّلاة الانفرادية في المخدع، إذ أننا نحتاج أن نكشف نفوسنا أمام اللهِ على انفراد وأن نصعد ابتهالاتنا إلى اذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية. والنَّفْس في المخدع تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي وفي معزل عن كل ما قد يثير الحواس أو يهيّج العواطف، فتتلمس اللهَ بهدوء وحرارة عظيمين. ما أحلى البَرَكَات المنبثقة حينئذ من الذي يرى في الخفاء ويسمع كل صلاة تصعد من صميم الفؤاد، وهكذا، بالإيمان البسيط الهادئ، تتمسك اَلنَّفْسُ بقوة اللهِ وتجمع لذاتها أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشَّيْطانَ الرجيم. إنَّ اللهَ لبُرجها الحصين.

فَصَلِّ إذن في مخدعك، وليكن قلبك مرفوعاً إلى اللهِ وأنت

تباشر أعمالك اليومية، لأنه هكذا سار أخنوخ مع اللهِ. ومثل هذه الصّلوات الصامتة تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، ولن يغلب الشَّيْطانُ أبداً الإنسان الذي يستند على اللهِ هكذا في قلبه.

وليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة إلى اللهِ فيهما. وليس من عائق يستطيع أن يمنعنا من التوجّه إليه في قلوبنا في روح الصَّلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجارية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحميا وهو مائل في حضرة المَلك ارتحشستا. لأننا حيثما كنا فنحن مع اللهِ كما في مخدع، وقلوبنا مفتوحة تدعو يَسُوعَ أن يمكث فيها ضيفاً كريماً محبوباً.

ولئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواءه المفسد. في إمكاننا أن نحيا في جو السَّمَاء النقي المنعش بأن نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة والتفكرات الدنسة، ونرفع قلوبنا إلى اللهِ في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه إلى اللهِ لقبول عونه وبَرَكَتِه يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، ويتصل

بالسّماء اتصالاً وثيقاً دائماً.

من حاجاتنا الماسة أن نرى يَسُوعَ رؤية أجلى وأوضح وأن ندرك قيمة الحقائق الأبدية إدراكاً أكمل. يجب أن تملأ زينة القداسة حياةَ أولاد اللهِ، ولا يتمّ لهم هذا إلا إذا طلبوا أن يعلن لهم اللهُ الأمور السَّمَاوية إعلاناً جلياً.

فلتنجذب اَلنَّفْس إلى فوق ليمنحها اللهُ أن تتنسم نسيم السَّماء. لأنه في إمكاننا أن نعيش قريباً من اللهِ حتى تتجه أفكارنا إليه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الأُقْحُوَان نحو الشَّمس على الدوام.

إِعْرِضْ حاجاتِك وأفراحك وأحزانك وهمومَك ومخاوفَك أمام اللهِ بصورة دائمة، لأنه لا يقلق من كثرتها ولا يمل من عددها. فالذي يحصي شعر رؤوسنا، ألا يهتم بحاجات أولاده؟ بلى. «الرَّبَّ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَرَؤُوفٌ» يعقوب ٥: ١١، وقلبه المحب يتأثر من أحزاننا حتى من ذكرها له. فاذهب إليه بكل ما يحيّر فكرك واثقاً أنّ الذي يحمل العالمين بكلمته ويسيرّ الكواكب حسب إرادته لا يعظم عليه أمر، ولا يستصغر أمراً ما حتى لا يعيره التفاتاً، وليس في أختباراتنا فصل لا يستطيع أن يقرأه ولا في حياتنا معضلة لا

يعرف حلها. ولا تصيب أحد أولاده الأصاغر نكبة، ولا يبهجهم فرح، ولا يساورهم خوف، ولا تصعد صلاة خالصة من شفاههم، إلا ويعلم بها أبونا السَّمَاوي ويهتم لهم بها. فهو «يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ» مزمور ١٤٧: ٣، ويعامل كل نفس معاملة فارقة كاملة كأنها هي الوحيدة التي بذل ابنه لأجلها.

قال يَسُوعُ: «تَطْلُبُونَ بِاسْمِي. وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا أَسْأَلُ الآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ لأَنَّ الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ» و «أَنَا اخْتَرْتُكُمْ ... لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي»، يوحنا ١٦: ٢٦ و ٢٧؛ ١٥: ١٦. ولكن الطلب باسم يَسُوعَ لا يعني مجرد ذكر اسمه العزيز في مستهل الصّلاة أو في ختامها، بل يعني أن يكون فينا فِكْر الْمَسِيحِ وروحه وأن نكون مؤمنين بمواعيده، متكلين على نعمته وممارسين أعماله.

وإذ يطلب اللهُ مِنَّا أن نعكف على التعبّد والصّلاة، فهذا لا يعني أن نعتزل هذا العالم ونلجأ إلى الأديرة والصوامع لكي نحيا حياة الترهّب والتنسّك. بل يجب أن نكون مقتدين بيَسُوعَ الذي كان يقضي يومه بين الاختلاء في الجبل وخدمة

الجمهور. فمن يحاول أن يقضي الوقت كله في الصّلاة لا يلبث أن يهجرها أو يأتيها كروتين شكلي، ذلك أن الإنسان عندما ينتزع نفسه من حياة المجتمع ويتناءى عن الواجب الْمَسِيحي ويتهرّب من حمل الصّليب، وعندما يتوقف عن العمل بإخلاص من أجل السّيد الذي عمل بإخلاص من أجله، تفتر همتُه وتصير صلاته بدون هدف وبدون باعث وتصبح طلباته مقتصرة على ذاتيته ومحصورة في دائرة أنانيته. فلا يصلي لأجل حاجات البشر عامة أو لأجل تقدم ملكوت اللهِ أو للحصول على قوة لكي يخدم ربَّه خدمة ناجعة مقبولة.

إننا إن أهملنا واجب المعاشرة واغفلنا تشجيع وتقوية بعضنا البعض على المُضي في خدمة اللهِ، نخسر خسارة أيّة خسارة. فتفقد الحقائق الإلهية قوتها على إحيائنا، وتقل أهميتها في نظرنا، فلا تؤثر بعد في أفكارنا لإنارتها وتقديسها، فننحط انحطاطاً روحياً متوالياً. وكمسحيين، سنخسر الكثير نتيجة عدم إظهار تعاطفنا واحدنا مع الآخر فالذي يعيش بمعزل عن الناس وينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له مِن اللهِ. فالتهذيب اللائق للمبادئ الاجتماعية في

طبيعتنا، يؤدي بنا الى التعاطف مع الآخرين، وتصبح وسيلة لتطويرنا وتقويتنا في خدمة اللّهِ.

لو كان الْمَسِيحيونَ يجتمعون للتحادث عن محبة اللّهِ وعن حقائق الفداء الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم وانعشوا بعضهم بعضا. لأنه في إمكاننا أن نتقدم كل يوم في معرفة اللّهِ ونختبر اختبارات جديدة في نعمه، وإذ ذاك نرغب في التكلّم عن محبته وتلتهب قلوبنا فينا ونتشجع. فلو زدنا في التفكير والتحادث عن يَسُوعَ وقلَّلنا من التكلّم عن أنفسنا لتمتعنا بدوام حضوره معنا وحلوله بيننا.

لو كان تفكيرنا في اللّهِ يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لَكنَّا نفكر فيه على الدوام نُسرّ بالتكلّم عنه ونلهج بحمده. إننا نتحادث عن الأمور الزمنية لأننا نهتم لها، ونذكر أحباءنا لأننا نحبهم ونرتبط بهم في أفراحنا وأتراحنا. بيدَ أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس مقارنة مع أسباب محبتنا لإخوتنا في البشرية. فيجب أن يكون غريزيا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته ونخبر بقوته. ولم يكن القصد من هباته الغنية التي يُنْعِم بها علينا أن نستغرق فيها ونغرم بحبها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير

في واهبها، بل كان القصد منها أن تذكّرنا دوماً به تعالى وتربطنا به برباط المحبة والشكران الشديدين. ولكننا نسكن في الحضيض، فلنرفعن أعيننا إلى باب المَقدْسِ السَّمَاوي المفتوح حيث نرى مجد اللهِ المضيء من وجه يَسُوعَ الْمَسِيحِ القادر «أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضاً إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ» عبرانيين ٧: ٢٥.

يلزم أن نكثر الحمد «عَلَى رَحْمَتِهِ وَعَجَائِبِهِ لِبَنِي آدَمَ» مزمور ١٠٧: ٨، وألا تقتصر عبادتنا على الطلب والأخذ. فلا نفكر دائماً في حاجاتنا ونغضّ الطرف عما بين أيدينا من النِّعَم والبَرَكَات، لأننا، وإنْ كنا لا نصلي أكثر مما يلزم وإنما نبخل في تقديم الشكر اللائق، نرى مراحم الرَّب التي تغمرنا على الدوام، وما أقل شكرنا وما أشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا.

قال اللهُ لإسرائيل قديماً إذْ اجتمعوا لخدمته: «تَأْكُلُونَ هُنَاكَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ وَتَفْرَحُونَ بِكُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ وَبُيُوتُكُمْ كَمَا بَارَكَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ» تثنية ١٢: ٧. فالذي نعمله لمجد اللهِ إنما يجب أن نعمله بفرح وبترانيم الحمد والشكر، لا بالغم والاكتئاب.

إنّ إلهنا لآب رؤوف فيجب ألا نحسب الخدمة له عملاً شاقاً مكدّراً. ينبغي أن نعبد اللهَ بسرور ونشارك في عمله. وأنه لا يسرّه أن يعمل أولاده من أجله وكأنه سيد صارم مسخر وهو الذي وفر لهم خلاصاً هذا مقداره. إنه أفضل صديق لنا. وإذ يعبدونه يريد الحضور معهم ليباركهم ويعزيهم ويملأ قلوبهم فرحاً ومحبة. يتوق اللهُ أن يشعر أولاده بالراحة في خدمته ويجدوا لذة ومسرة بدلاً من المشقة في عمله. ويرغب في أن الذين يعبدونه تمتلئ عقولهم بأفكار ثمينة عن رعايته ومحبته، وبهذا ينالون التشجيع للقيام بالواجبات اليومية، ويحصلون على نعمة تمكّنهم من الاستقامة والأمانة في جميع معاملاتهم.

فلنجتمع حول الصَّلِيب ولنجعل الْمَسِيحَ وإياه مصلوباً مدار تأملاتنا وموضوع محادثاتنا ومبعث فرحنا وابتهاجنا. ولنتذكر كلَّ بَرَكَةٍ تأتينا مِن اللهِ حتى إذا ما تحققنا عظم محبته نثق به ونودع بين يديه المُسَمَّرتين كل أمورنا عن رضى مطمئنين.

إنّه في استطاعة النَّفْس أن تسمو وتعلو إلى السّماء على أجنحة الحمد والشكر. فاذ نُعبُّر عن شكرنا له بصوت

الترنّم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السَّماوية التي تُقدِّم لله الحمـد بقيثارات ونغمات مفرحة، ولقد قال تعالى إنَّ «ذَابحُ الْحَمْدِ يُمَجِّدُنِي» مزمور ٥٠: ٢٣، فهلمَّ نتقدم إلى خـالقنا ونهـتف له بصـوت «الْحَمْدُ وَصَوْتُ التَّرَنُّمِ» إشعياء ٥١: ٣.

١٢ - التَّعامُل مع الشُّكوك

كثيرون تضايقهم الأفكار وتقلقهم الشّكوك، ولا سيما حديثو الإيمان، ذلك لأنهم يصادفون في الكُتُب المُقدَّسة آيات لا يستطيعون تفسيرها ولا فهمها، يستخدمها الشَّيْطَان لإثارة الشَّك في كونها موحى بها من اللهِ. فتراهم يتساءلون متحيرين، «كيف يمكننا أن نعرف السّبيل السّوي؟ فإذا كان الكِتَاب المُقَدَّس كلمة اللهِ حقيقة، كيف يتسنى لنا أن نتحرر من الشّكوك والارتباكات؟»

إنّ اللهَ لمَ يطلب مِنَّا أن نؤمن دون أن يقدِّم لنا بيِّنات كافية نبني عليها إيماننا. فالشّواهد التي تدلنا على وجود اللهِ، وتظهر لنا صفاته وسجاياه، وتثبت صدق أقواله، متوافرة لدينا، وهي مستساغة للعقل أيضاً. ومع ذلك فإنّه تعالى لم يُزِل إمكانية الشّك، اذْ يجب أن يقوم إيماننا على البيان، لا على العيان. ومن ثم يكون لنا أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب. فمن أراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، ومن أراد أن يؤمن فلا تعوزه البينة ولا ينقصه الدليل.

بيد أنّه يستحيل على عقولنا أن تدرك كُنْه اللهِ، أو أن

تستوعب أعماله، لأنه تعالى محاط بأسرار تحير حكمة العالَم. فإنّ أذكى الأذهان المثقفة تعجز عن استيعابها وإدراكها، بل يقف العلماء منها موقف من قال: «أَإِلَى عُمْقِ اللهِ تَتَّصِلُ أَمْ إِلَى نِهَايَةِ الْقَدِيرِ تَنْتَهِي؟ هُوَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ فَمَاذَا عَسَاكَ أَنْ تَفْعَلَ؟ أَعْمَقُ مِنَ الْهَاوِيَةِ فَمَاذَا تَدْرِي» أيوب ١١: ٧ و ٨.

وكَتَب الرسول بولس في ذلك هاتفاً بتعجب: «يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الِاسْتِقْصَاءِ» رومية ١١: ٣٣. لكن، ولئن كان «السَّحَابُ وَالضَّبَابُ حَوْلَهُ. الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّهِ» مزمور ٩٧: ٢. وفي استطاعتنا أن نفهم معاملته للناس وأن نعرف بواعثه، فنرى فيها محبة أبدية متحدة بقوة فائقة الحد. ونستطيع أيضاً أن ندرك مِن مقاصده ما هو لمنفعتنا. وأما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته ونتكل على قوته.

كذلك كلمة اللهِ أيضاً، فيها كما في مُنزّلها، أسرار لا يمكن استقصاؤها. وأهم مواضيعها، كدخول الخطية إلى العالم، وتجسّد الْمَسِيحِ، والتجديد والقيامة، وما إلى ذلك

من مكنونات الكُتُب المُقدَّسة، كلّها أعماق لا يصل الإنسان إلى سبر غورها. ولكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليس مما يدعو إلى عدم الإيمان بها. فنحن مُحاطون في عالَم الطبيعة، بأسرار لا يمكن الوصول إلى فهمها. فلم يستطع فطاحل العلماء والفلاسفة أن يفهموا كُنْه الحياة الظاهرة في أبسط مخلوقات اللهِ. إننا حيثما نلتفت نجد أسراراً لا ندركها. فهل نستغرب إذاً وجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمها؟ والصعوبة ليست في الحقائق نفسها بل في ضعف العقل البشري وقصره. ومع ذلك فقد أعطانا اللهُ في الكُتُب المُقدَّسة بيانات كافية لإثبات الحقيقة أنها من مصدر إلهي، فلا نشك فيها لمُجرد أننا لا نستطيع فهم كل أسرار عنايته الإلهية.

نعم، في الكُتُب المُقَدَّسة، كما قال الرسول بطرس: «أَشْيَاءُ عَسِرَةُ الْفَهْمِ، يُحَرِّفُهَا غَيْرُ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرُ الثَّابِتِينَ ... لِهَلاَكِ أَنْفُسِهِمْ» ٢بطرس ٣: ١٦. وقد اتخذ الملحدون هذه الأشياء العسرة الفهم حجة ضد الكِتَاب المُقَدَّس. بيد أنّ النتيجة يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لأن هذه الصعوبات تكون حجة قوية على وحيه الإلهي. فإذا خلت

الكُتُب المُقَدَّسة، في إخبارها إيَّانا عن أمور اللهِ، من كل ما يعسر علينا فهمه. ولو أدركت العقول البشرية الضعيفة ما جاء فيها عن عظمته وجلاله، لاعتُبِر هذا الخلو برهاناً على أنها لا تحمل سمة اللهِ التي لا تخطأ عن سلطانه الإلهي. أما سمو مواضيعها وجلالها فيولدان في القلوب إيماناً بها وثقة بأنها كلمة اللهِ المُنزّلة.

يعرض الكِتَابُ المُقَدَّس الحق ببساطة وملاءمة تامة مع حاجات البشر وأشواق قلوبهم بطريقة أذهلت ذوي العقول المثقفة واستهوتهم، وفي الوقت ذاته يُمكِّن أبسط الناس وغير المتعلمين منهم من تمييز طريق الخلاص. غير أن الحقائق التي يُعَبِّر عنها الكِتَاب المُقَدَّس ببساطة متناهية تتناول مواضيع سامية، شديدة العمق فائقة الإدراك البشري، حتى أننا نؤمن بها فقط لثقتنا بأنّ اللهَ تعالى هو معلنها. فنرى تدبير الفداء موضَّحَاً بحيث تعرف كل نفس الخطوات التي عليها أن تخطوها في التوبة إلى اللهِ والإيمان بربنا يَسُوعَ الْمَسِيحِ لكي تنال الخلاص بالطريقة التي عيَّنها اللهُ. ومع ذلك يحوي هذا التدبير الواضح أسراراً يتستر فيها مجد اللهِ، تذهل عقول دارسيها وتلهم

المُخلِصين في طلب الحق وقاراً وإيماناً. واذا أمعن القارئ النَّظر فيها ازداد اقتناعاً ويقيناً بأنها كلمات اللهِ الحي. فينحني المنطق البشري أمام جلال الوحي الإلهي. إن اعترافنا بأننا لا نستطيع أن نفهم حقائق الكِتَاب المُقَدَّس فهماً كاملاً، ما هو إلا إقرار بأن العقل المحدود قاصر على الإلمام بغير المحدود وأن الإنسان بمعرفته الجزئية لا يستطيع أن يستوعب أغراض وأهداف اللهِ كُلّي القدرة.

يرفض المشككون والملحدون كلمة اللهِ لأنهم يعجزون عن فهمها والتعمُّق فيها وليس جميع الذين يدّعون الإيمان في مأمن من هذا الخطر المحدق. فها الرسول بولس يحذِّرنا قائلاً: «اُنْظُرُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ لاَ يَكُونَ فِي أَحَدِكُمْ قَلْبٌ شِرِّيرٌ بِعَدَمِ إِيمَانٍ فِي الاِرْتِدَادِ عَنِ اللهِ الْحَيِّ» عبرانيين ٣: ١٢. إنّه لمن الصواب أن ندرس تعاليم الكُتُب المُقَدَّسة بتدقيق وإمعان، وأن نفحص كل شيء «حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ» ١كورنثوس ٢: ١٠. كما قـد أعلنها اللهُ، لأن «السَّرَائِرُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا وَالْمُعْلَنَاتُ لنَا» تثنية ٢٩: ٢٩. ولكن الشّيطان يعمل على تضليل قوى العقل، فيدخل في دارس الكِتَاب المُقَدَّس شيئاً من العجب بذاته حتى أنه يشعر بتضجر وفشل إنْ

لم يستطع أن يفهم كل الحق المدون في هذا الكِتَاب.كما أنه يشعر أيضاً بالإذلال والمهانة في الاعتراف بأنه لا يفهم كلمات الوحي. ولا يصبر ريثما يعلنها له الرُّوح الْقُدُس حين يشاء. واذ يعتد بحكمته البشرية حاسباً أنها كافية لإدراك معاني الكُتُب المُقَدَّسة، ثمّ يُمنى بالفشل في بلوغ الغاية المنشودة فما يلبث أن يكذّبها ويرفض سلطانها. وهذه النظريات والمعتقدات التي تولّد الشَّك في العقول وتربكها والتي يزعمون أنها مبنية على كلمة اللهِ، هي بالحقيقة لا تمتّ إليها بصِلة، بل تناقضها تناقضاً بيِّنَاً، إذ هي من استنباط الناس وتحريفهم، وكلمة اللهِ بريئة منها براءة تامة.

لو كان في مقدور المخلوق أن يحيط علماً بالخالق ويدرك جميع أعماله إدراكاً كاملاً لبلغ بذلك حداً في التقدّم والمعرفة حتى لم يبقَ له مجال للنمو في العلم والازدياد في كمال الصفات. فلا تكون بعد أفضلية لله أو سيادة.والإنسان، اذ قد بلغ الحد في العِلْم والكمال، يتوقف عن التقدّم. فلنشكرن اللهَ أنَّ الأمر بخلاف ذلك، لأنَّ اللهَ، «الْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ»

كولوسي ٢: ٣، لا يستقصى ولا يُحدّ، وسيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث والدرس دون أن يستنفذ كنوز حكمة اللهِ وجوده وقوته.

يريد اللهُ مِنَّا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدّما مطرداً في فهم حقائق كلمته. ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنارة الرُّوح الْقُدُس الذي أوحى بها، لأنّ «أُمُور اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ» و «الرُّوح يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ» ١كورنثوس ٢: ١٠ و ١١. وقد وَعَدَ الْمُخَلِّصُ تلاميذه قائلاً «مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ... لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ» يوحنا ١٦: ١٣ و ١٤.

يريد اللهُ أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، وليس ما يزيد هذه القوى قوّةً واقتداراً ويرقّي الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة اللهِ. على أنه يجب علينا أن نحترس من تأليه العقل، لأنه خاضع لضعفات البشرية وأسقامها. وإنْ كنا نريد ألا تلتبس علينا أوضح الحقائق الكتابية، يجب أن ندرسها ببساطة الطفل الصغير وإيمانه مظهرين رغبتنا في التعلّم وملتمسين معونة الرُّوح الْقُدُس. واذا شعرنا بقدرة اللهِ وحكمته وعدم استطاعتنا أن ندرك عظمته، يلهمنا هذا

الشعور وداعة واتضاعاً، فنفتح الكلمة بوقار مُقدَّس كما لو كنا نمثل أمام حضرته فعلاً. يجب أن يُقْدِم المرء على درس كلمة اللهِ معترفاً بوجود سلطة تفوق العقل ومخضعاً القلب لله القيّوم.

توجد أشياء كثيرة تبدو غامضة ومعقدة، فهذه سيوضحها اللهُ ويبسِّطها للذين يطلبون فهمها. ولكن بدون إرشاد الرُّوح الْقُدُس، سنكون معرضين باستمرار لتأويل الأسفار المُقَدَّسة أو إساءة فهمها. ولكنّ الكثيرين يقرأون الكِتَاب المُقَدَّس ولا يجنون منه فائدة، وقد يصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة اللهِ بدون احترام أو صلاة، فأفكارهم لم تتوجه إلى اللهِ ولم تثبت عواطفهم فيه ولم تتسق إراداتهم مع إرادته، فيخيّم الشَّك على عقولهم ويتقوّى فيهم عدم الإيمان فيَمْلك العدو أفكارهم ويوحي إليهم بتفسيرات مضلّة. والذي لا يطلب أن ينسجم ويتآلف مع اللهِ قولاً وفعلاً مهما كان عالِماً مقتدراً، هو عُرضة للخطأ في فهم الكِتَاب المُقَدَّس والضلال في تفسيره، فلا يُعوّل عليه. وأولئك الذين يفتشون الكِتَاب المُقَدَّس بقصد العثور على تناقضات فيه، إنما تنقصهم البصيرة

الروحية، وإذ ينظرون إليه نظراً معوّجاً يرون في أبسط آياته وأوضحها أسباب الشَّك وعدم الإيمان.

إنّ سبب الشَّك الأساسي، مهما تنكّر وتستّر، هو في الغالب الميل إلى محبة الخطية. فلا يرحّب المُتكبِّر المُحِب للخطية بمناهي كلمة اللهِ وإرشاداتها. وإذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتها وينكر سلطتها. ولكي نصل إلى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبة صادقة في معرفته وميل قلبي للسلوك بموجبه. وكل الذين يدرسون الكُتُب المُقَدَّسة بمثل هذه الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة اللهِ حقاً ويكتسبون من معرفة حقائقها ما يحكمهم للخلاص.

قال يَسُوعُ «إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ» يوحنا ٧: ١٧. فعوضاً عن التساؤل والتماحك في ما لا تفهمه، احرص على أن تنتبه إلى النور الذي قد حصلت عليه فتأخذ نوراً أعظم. واجتهد، بنعمة الْمَسِيحِ، أن تقوم بكل واجب قد صار واضحاً أمامك فتنال قوة تقدّرك على فهم تلك الواجبات التي تشك فيها الآن، وعلى القيام بها أيضاً.

إنّ في الاختبار لدليل يدركه الجميع، متعلمين كانوا أَمْ أُميين، واللهُ يدعونا إلى امتحان صحة أقواله وصدق مواعيده إذ يأمرنا قائلاً «ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبّ» مزمور ٣٤: ٨. فجدير بنا ألا نتكل على ما قاله غيرنا، بل لنذق نحن أنفسنا ونعرف صدق كلماته. « اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا» يوحنا ١٦: ٢٤. لأنه لا بدّ أن يحقق لنا هذه المواعيد التي لم تخِبْ قط ولن تخيب أبداً. وإذ ندنو من يَسُوعَ ونفرح بملء محبته تزول شكوكنا وينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل.

قال الرسول بولس إنّ اللهَ «انْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا الَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ» كولوسي ١: ١٣. وكل مَن قد انتقل مِن الموت إلى الحياة «قَدْ خَتَمَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ» يوحنا ٣: ٣٣. فيمكنه أن يشهد قائلاً «احتجت إلى العون ووجدته في يَسُوعَ الذي سد حاجاتي واشبع جوع نفسي وجعلني أؤمن الآن أنّ الكِتَاب المُقَدَّس بالنسبة لي هو إعلان ليَسُوعَ الْمَسِيحِ. وإن سألتني عن إيماني بالْمَسِيحِ أقول: لأنَّه مُخلِّصي الإلهي، أو عن ثقتي بالكِتَاب المُقَدَّس أجبت إني وجدته صوت اللهِ لنفسي». وهكذا يكون لنا في

أنفسنا الشهادة أن الكِتَاب المُقَدَّس حق، وأن الْمَسِيحَ ابن اللهِ، وأننا في إيماننا به «لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً» ٢ بطرس ١: ١٦.

حثَّ بطرس الرسول الإخوة على أن ينموا «فِي النِّعْمَةِ وَفِي مَعْرِفَةِ رَبِّنَا وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» ٢بطرس ٣: ١٨. إنه عندما يكون شعب اللهِ نامياً في النِّعمة يزداد على الدوام فهماً وإدراكاً لكلمته تعالى. ويكون في استطاعته أن يرى نوراً جديداً وجمالاً جديداً في حقائقها المُقَدَّسة. ولقد صَدَق هذا القول في تاريخ الكنيسة على مدى العصور، وسيظل صحيحاً إلى النهاية. كقول الحكيم «أَمَّا سَبِيلُ الصِّدِّيقِينَ فَكَنُورٍ مُشْرِقٍ يَتَزَايَدُ وَيُنِيرُ إِلَى النَّهَارِ الْكَامِلِ» أمثال ٤: ١٨.

فبالإيمان نستطيع أن نتطلع إلى الأبدية ممسكين بوعد اللهِ من جهة ما سنكون عليه من النّمو العقلي واتحاد مداركنا بالمدارك الإلهية وجعل كل قوة من قوى النَّفْس على اتصال مباشر بمصدر النور. حينئذ نستطيع أن نفرح ونتهلل لأن كل الأمور التي تسبب لنا حيرة وارتباكاً بشأن أعمال العناية ستكون واضحة جلية. والأشياء التي تبدو لنا عسرة الفهم ستكون مدركة مفهومة. وكل ما بدا لعقولنا

مشوّشاً مضطرباً سنراه على أتمّ انسجام وأجمل تنسيق، «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ فِي لُغْزٍ لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ لَكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ» ١كورنثوس ١٣: ١٢.

١٣ - الفَرَحُ فِي الرَّب

إنّ أولاد اللهِ لمدعوون ليكونوا سفراء عن الْمَسِيحِ مظهرين للعالَم جود الرَّب ورحمتَه، فكما أعلن الْمَسِيحُ صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أيضاً الْمَسِيحَ على حقيقته لعالَم لا يعي حنوّ محبته وشفقتها. وقد وصف يَسُوعُ مهمتنا هذه إذ قال مخاطباً الآب: «كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ»، «أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ ... لِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي» يوحنا ١٧: ١٨ و ٢٣. ويخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يَسُوعَ: «ظَاهِرِينَ أَنَّكُمْ رِسَالَةُ الْمَسِيحِ»، «مَعْرُوفَةً وَمَقْرُوءَةً مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ» ٢كورنثوس ٣: ٣ و ٢. ففي كل مِن أولاده يرسل يَسُوعُ رسالة إلى العالَم ويرسل بك، وأنت مِن أولاده رسالةً إلى أُسرتك، وإلى قريتك، وإلى الحي الذي تسكنه لأنه وهو حالّ في قلبك يريد أن يتحدث بك إلى قلوب الذين لا يعرفونه. وقد يكون أنهم من الذين لا يطالعون الكُتُب المُقَدَّسَة، فلا يسمعون صوته مِن صفحاتها، ولا يرون محبته في أعماله، ولكنهم، إن أنت مثّلته أمامهم، قد

يفهمون شيئاً مِن رحمته ويُربحون لمحبته وخدمته.

جعل الْمَسِيحُ من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي إلى السّماء لكي يستنير كلٌّ مَن يراهم ويلاحظ صفاتهم ويعرف مَن هو الْمَسِيحُ وما هي خدمته.

إنْ نحن مثَّلنا الْمَسِيحَ تمثيلاً صادقاً، سنجعل خدمته تبدو على حقيقتها جذابة خلابة. وأما الْمَسِيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة والحزن وتنطق السنتهم بالتذمرات والشكاوى، فهم يمثِّلون اللهَ والحياة الْمَسِيحية تمثيلاً كاذباً إذ يحملون الناس على الظن بأنه تعالى لا يسرّ بسرور أولاده وسعادتهم. فهم يشهدون على أبيهم السَّمَاوي شهادة زور.

يفرح الشَّيْطانُ عندما ينجح في اقتياد أولاد اللهِ إلى اليأس والقنوط، ويبتهج إذ يحملهم على الارتياب من إرادة المولى في خلاصهم وفي قوّته على ذلك. كما أنه يرتاح ارتياحاً عظيماً إذ يراهم يوجسون شرّا من تدبيرات العناية الإلهية. إنّ شغل إبليس الشاغل هو أن يصوّر اللهَ لعقولنا كأنه تعالى خالٍ من الرأفة ومجرَّد مِن الرحمة. وهكذا يُعبِّر الشّيطان عن الحق تعبيراً كاذباً ويملأ المخيلات بأفكار عن

اللهِ فاسدة. وكثيراً ما نتأمل في أباطيل العدو هذه ولا نتأمل في الحق المتعلق بأبينا السَّماوي. فنهين اللهَ بشكوكنا فيه وتذمراتنا عليه. والشَّيطان دؤوب في تصوير الحياة الدينية كأنها حياة التشاؤم مليئة بالأتعاب والصعاب. وعندما يظهر المؤمن أمام العالَم بمثل هذا المنظر، فإنه بعدم إيمانه يدعم ادّعاء الشَّيْطانِ الكاذب هذا.

كثيرون، وهم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم وخيبة آمالهم. فتمتلئ قلوبهم حزناً وكآبة، كما حدث لأختٍ كتبت إليَّ وأنا في أوروبا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم. وحدث في الليلة التالية لقراءة رسالتها أنني حلمت أني في بستان وصاحب البستان يقودني في طرقاته وأنا أقطف الزهور وأتلذذ بجمال رائحتها. وإذ بالأخت المُشار إليها وهي تسير إلى جانبي تلفت نظري إلى الشوك والحسك اللذين كانا يعترضان طريقها. فكانت تئنّ وتتنهد ولم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك والعوسج وهي تقول، «آه أليس مما يؤسف له أنّ هذا البستان الجميل تفسده هذه الاشواك». فأجابها القائد قائلاً: «دعي الأشواك وشأنها، وإلا فإنها تجرحك، واقطفي

الورد والزنبق والقرنفل».

أَلَمْ تجتز في اختباراتك في مراتع هناء؟ أَلَمْ يطرب قلبك فرحاً بالروح يوماً ما؟ وإذا تصفحت سِفْر حياتك ألا تجد بين صفحاتِه صفحات ملذّة؟ أوليست مواعيد اللهِ كزهور عطرة نابتة على جانبي الطريق يمتلئ قلبك فرحاً لجمالها وحلاوتها؟

أما العوسج والأشواك، فهذه إنما تجرحك وتكدرك. وإن حصرت همك في جمعها، ورحت تقدمها للآخرين، أفلا تكون بعملك هذا قد ازدريت بجود اللهِ ومنعت أيضاً الذين حولك من السير في طريق الحياة؟

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية، بما فيها من خطايا واخفاقات، ونتحدث عنها ونحزن عليها إلى أن يغمرنا الفشل واليأس. فإنّ النَّفْس الخائرة العزم يحفّها ظلام قاتم لا يتخلله نور اللهِ، بل وتلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين أيضاً.

نشكر اللهَ على الصّور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته. فلنجمعن توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار حيث نرى ابن اللهِ تاركاً عرش أبيه ولابساً الطبيعة

البشرية لينقذنا من سلطة إبليس. ولنتأمل انتصاره لأجلنا فاتحاً لنا أبواب السَّماء ومعلنا للعين البشرية مسكن حضرتِه حيث يتجلّى المجدُ الإلهي. فنرى الجنس الهالك مرفوعاً مِن هُوّة الهلاك التي تردّى فيها بواسطة الخطية، معاداً اتصالُه بالقادر على كل شيء، فائزاً في امتحان الإيمان بالفادي، مكتسباً بِرَّ الْمَسِيحِ وجالساً على عرشه. إنّ هذه هي الصّور التي يعرضها علينا ويريد أن نطيل التأمل فيها فنفرح كل حين.

ولكن عندما يبدو علينا الارتياب من محبة اللهِ وعدم الثقة بمواعيده، نهينه ونُحزِن روحه القُدُّوس. ماذا يكون شعور أُمّ اذا كان أولادها يتذمرون ويتشكون منها باستمرار، كأنّها غير معنية بشؤونهم، في حين أنّ كل جهودها منصرفة إلى الاهتمام بهم والعمل على إراحتهم. أو ليس ممّا يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ وأي والد يرضى بأن يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ وكيف يعتبر أبونا السّماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيده لأجلنا لكي نحيا حياةً أبديةً، وقد قال الرسول: «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ

كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ» رومية ٨: ٣٢. ومع ذلك فكم مِن أمرئ يقول، إنْ لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إنّ اللّهَ لا يقصدني أنا شخصياً بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين ولكنّه لا يحبني أنا بالذات.

إنّ هذا الموقف ليضرّ بنفسك، لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشكوك تفتح الباب للمجرّب، وتقوّي في نفسك الميل إلى الارتياب، وتحزن الملائكة القائمين على مساعدتِك وحراستِك. فإذا جرّبَك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الإيمان. لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو ووسوساته، يملأ صدرك بهواجسه، وفكرك بسؤالات التمرّد. وإذا تكلمت بما في خلدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرعُ في أفكار غيرِك زرعاً ينبت ويأتي بثمرٍ قد لا يبطل مفعولُه أبداً. قد تستفيق أنت من التجربة وتنجو من فخ إبليس في حين أن هؤلاء الذين أثّرت فيهم بتعبيرك عن شكوكك قد لا يستطيعون الخلاص من الكُفْر الذي زرعته فيهم بكلامك. فمن المهم جداً أن نجعل كلامَنا مقتصراً على ما يهبُ السامعين حياةً روحيةً وقوةً إلهية.

ينصت الملائكة ليسمعوا ما تخبر به العالَم عن أبيك السَّماوي. فليكن حديثك دائماً عن الحي في كل حين ليشفع فيك. وإذ تصافح صديقك ليكن الحمد لله على شفتيك وفي قلبك. فإن هذا أدعى إلى اكتساب صديقك واجتذاب أفكارِه إلى الْمَسِيحِ.

لكلّ الناس محنهم وأحزانهم التي تثقل كاهلهم ولهم تجاربهم التي يصعب عليهم مقاومتها. لا تخبر البشر رفقائك بأتعابك، بل ألقها على اللهِ بالصَّلاة. وخذها لنفسك قاعدة أنك لا تتفوه أبداً بكلمة من شأنها أن تثني عزم غيرك أو تبث فيهم الشَّك، بل اعمل ما في وسعك لتخفف عنهم أثقالهم وتقوّيهم بكلمات الرجاء والثقة المُقَدَّسَة.

كم مِن نفْس باسلة تعاني من شدة التجربة، وقد أوشكت أن تخور في جهادها ضد نفسها وضد قوات الشر. فلا تثبط مثل هذه النَّفْس في صراعها الشاق، بل شدّدها بكلمات التشجيع والرجاء التي تدفعها إلى المُضي في السّير. وبذلك ينبعث منك نور الْمَسِيحِ ويضيء على الآخرين، «لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَعِيشُ لِذَاتِهِ» رومية ١٤: ٧. فإنه بتأثيرنا، من حيث

لا نشعر، قد يتشجع الآخرون ويتقوون، أو قد يضعفون ويخورون، فيصدّون عن الإتيان إلى الْمَسِيحِ وقبول الحق.

كثيرون يحملون صورة خاطئة عن حياة وصفات السّيد الْمَسِيحِ. فهم يتصورون أنّ الْمَسِيحَ كان صارماً عابساً بعيداً عن كل تبسّم وفرح، ولذلك ترى كل اختباراتهم الدينية مصطبغة بهذا التصوّر المغلوط.

كثيراً ما نسمع الآية «بكى يَسُوعُ»، والقول إنّ الكِتَاب لا يذكر أنه تبسّم. صحيح أنّ مخلِّصنا كان «رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ» لأنه حمل على قلبه ويلات البشر كلها. ولكن ولئن كانت حياته حياة إنكار الذات والتضحية وخيّم عليها سحاب من الآلام والهموم، إلا أنّ هذا كله لم يسحق روحه فيه، ولم تكن هيئته هيئة الحزين المتضجر بل هيئة الرائق المطمئن. وقلبه كان كينبوعٍ من الحياة يفيض سلاماً وفرحا ًوابتهاجاً حيثما حلّ.

كان مخلّصُنا يتسم بالوقار والهيبة ومع ذلك لم يكن متجهّماً مكتئباً. والذين يقتدون به تمتلئ حياتهم بجدية القصد والشعور العميق بالمسؤولية الشَّخصية ويبعدون عن كل طيش ومرح صاخب وملاحظات ساخرة تجاه

الآخرين. لأن الديانة الْمَسِيحية تمنح سلاماً كالنهر لمعتنقيها. فهي لا تطفئ جمرة الفرح ولا تخمد حماسة الابتهاج ولا تغيّم على الوجه الوضّاح البسّام. إنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَأتِ ليُخْدَمَ بل ليَخْدِمِ. هكذا هم أيضاً يقتدون به عندما تملك المحبة في قلوبهم.

إذا تأملنا في ما يأتيه الناس من الأعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبَّهم كما أحبنا وإياهم الْمَسِيحُ، بيد أننا إذا أكثرنا التفكير في حنو محبته العجيب وشفقته، يفيض روح الْمَسِيحِ مِنَّا للناس. والحبّ للناس واجب واحترامهم لازم مهما رأينا فيهم من الهفوات والنقائص. وإذا ربّينا أنفسنا على التواضع وعدم الاعتداد بالذات واللطف والصبر أمام هفوات الناسِ نستأصل بذلك الأنانية من أنفسنا ونُكسبها سعةَ صدرٍ ورحابةَ قلب.

قال المرنم: «اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ وَافْعَلِ الْخَيْرَ. اسْكُنِ الأَرْضَ وَارْعَ الأَمَانَةَ» مزمور ٣٧: ٣. أجل، «اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ» لأن لكل يوم أثقاله وهمومه ومحيّراته، وحين نجتمع معاً ما أكثر استعدادنا لأن نتحدث عن أتعابنا وتجاربنا، فهذا يتوجس شرّاً من هنا وذاك يتوقع صعاباً مِن هناك، وكلّنا

نُعَبِّر عن ثقلِ همّنا، فكأني بنا وليس لنا مُخَلّص حبيب شفوق وُجِدَ في الضيق عوناً شديداً.

ويتطلع البعض إلى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع أنهم محاطون يومياً بدلائل المحبة الكثيرة ويتمتعون بهبات العناية الإلهية، إلا أنهم يغضون الطرف عن البَرَكَاتِ الحاضرة. وهم ينصرفون إلى التأمل في أمورٍ غير مستحبّة قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، ومع صغرها، أعمت أعينهَم عن الأشياء الكثيرة التي تستوجب الشّكر العظيم. فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم إلى اللهِ، مصدر عونهم الوحيد، تفصلهم عنه تعالى لأنها تولّد فيهم القلق والتذمر.

هل بالصواب لا تؤمن؟ ولماذا نكون عديمي الشّكر وعديمي الثّقة؟ إنّ يَسُوعَ لصديقنا والسّماء كلها مهتمة بصالحنا، فيجب ألا ندع ارتباكات الحياة اليومية وشواغلها تجعلنا قلقي البال ومُقطبي الجبين. لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائماً ما ينغصنا ويكدرنا. فينبغي ألا نستسلمَ للهمّ. فإنَّ الهمّ يضنينا ويبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب.

قد تَرْتَبِك في تجارتك وقد تعتّم الأحوال أمامك وتهددك الخسارة من كل جانب، فلا تيأس بل أَلْقِ على الرّب همَّك، واحتفظ بهدوئك وانشراحك. صلِّ إلى اللهِ طالبا منه الحكمة والحذر في إدارة شؤونك لكي تتبصّر فيها وتمنع الخسارة والخراب. واعمل ما في وسعك للحصول على نتائج مُرضية. فقد وعد يَسُوعُ بالمساعدة إنْ بذلنا نحن جهدنا، ثمّ، وقد قمت بالواجب وأنت متكل على معينك الأمين، فاقبل النتائج برضى وفرح.

ليست إرادة الرّب أن يثقل كاهل شعبه بالهمّ غير أنه لا يريد أيضاً أن يضلّنا فلا يقول لنا «لا تخافوا لأن طريقكم مأمون وليست أمامكم مخاطر». كلا، بل هو يعلمُ أن التجارب والأخطار تنتظرنا. لهذا السبب جعلنا على بيّنة من الأمر وهو لا يعتزم أن يأخذ شعبه من عالم الخطية والشر، بل أن يدلهم على الملجأ الأمين. لقد صلى الْمَسِيحُ من أجل التلاميذ قائلاً، «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ» يوحنا ١٧: ١٥. وخاطبهم قائلاً: «فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ وَلَكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمِ» يوحنا ١٦: ٣٣.

في الموعظة على الجبل علَّم الْمَسِيحُ تلاميذه دروساً ثمينة فيما يختص بضرورة الثِّقَة باللهِ. وكان القصد من هذه الدروس تشجيع أولاد اللهِ على مدى العصور، وقد وصلت إلينا مفعمة بالتعليمات والتعزيات. فقد وجّه الْمَسِيحُ أنظار تابعيه إلى طيور السَّمَاء وهي تنطلق في الجو مغرّدةً أناشيد الحمد والشكران دون أن يشغلها همّ أو قلق. وهي مع كونها لا تزرع ولا تحصد، يمدها الآب السّماوي بكل حاجاتها. ثم سأل تلاميذه قائلاً: «أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا» متى ٦: ٢٦. فإنَّ رزَّاق الإنسان والحيوان هو الذي يفتح يده ويشبع جميع مخلوقاته خيراً. وهو تعالى لا يغفل حتى عن عصافير السّماء إذ يسد حاجاتِها، وإن كان لا يضع الطعام في مناقيرها، لكنّه يعطيها فتلتقط. فهي تعدّ أعشاشها وتقوت صغارها وتنطلق في الجو مغردة في عملها، لأن الآب السّماوي يقوتها. «أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا» متى ٦: ٢٦. وما قيمة العصافير بالنسبة إليكم وأنتم خلائق اللهِ العاقلة التي تعبده «بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ»؟ أفلا يمدكم خالقكم وحافظ حياتكم بكل ما تحتاجون إليه إنْ أنتم توكلتم عليه؟

وجَّه الْمَسِيحُ أنظار تلاميذه إلى زهور البرّية النامية بكثرة، الزاهية بجمالها البريء الذي به زيّنها أبونا السـّماوي تعبيراً عن محبته للإنسـان. فأشـار إليه قائلاً: «تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو» متى ٦: ٢٨. إنّ جمال هذه الزهور الطبيعية ليفوق كثيراً مَجْدَ سليمان، بل ولا تعادل كل الحلل التي حاكها وزخرفها أمهر الصناع هذا الحُسن الطبيعي والبهاء اللامع في الزهور التي خلقها اللهُ ولا تقارن ببساطتها. ثم أردف يَسُوعُ متسائلاً: «فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غداً فِي التَّنُّورِ يُلْبِسُهُ اللَّهُ هَكَذَا أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدّاً يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ» متى ٦: ٣٠. إن كان اللهُ، الفنَّانُ الإلهي العظيم، يزين عشب الحقل الذي في يوم واحد يفنى، بشتى الألوان البديعة اللطيفة، فكم بالحري يعتني بالذين خُلقوا على صورته ومثاله؟ فدروس الْمَسِيحِ هذه إنما تحوى توبيخاً لذوي الفكر القلق والقلب الشاكّ الجاحد.

إنَّ الرَّب يودّ لو كان كل أولاده سعداء، مُسْتَقِرّين، كما يدلّ على ذلك قوله «سلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ» يوحنا

١٤: ٢٧، «كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ» يوحنا ١٥: ١١.

إنّ السَّعادة التي ينشدها الإنسان عن دوافع أنانية بعيداً عن طريق الواجب إنّما هي سعادة مختلة التوازن متقلبة، ذاهبة، تضمحل تاركة النَّفْسَ حزينة مستوحشة. ولكن في خدمة اللهِ دوامُ الفرح والرضى. فهو تعالى لا يترك المؤمن يسير في طريق غير مأمونة، يتأسف تأسفاً باطلاً، وينوح خيبة الآمال، لأن البارَّ، وإن كان لا يتمتع بكثير من بَرَكَات هذه الحياة إلا أنه يتطلع إلى الأبدية بفرح عظيم.

ولكن يمكن أن يكون للمؤمن، حتى في هذه الحياة، فرح الشركة مع الْمَسِيحِ وابتهاج السلوك في نور محبته وتعزية حضوره الدائم. فإنّ كل خطوة يخطوها في الحياة تدنيه منه وتهبه اختباراً أعمق في محبته وتزيده اقتراباً مِن وطنه المبارك، موطن السلام. فلا نطرحن ثقتَنا، بل لنزدد تيقّناً ورسوخاً أكثر من أي وقت مضى لأن «إِلَى هُنَا أَعَانَنَا الرَّبُّ» ١صموئيل ٧: ١٢. وهو سيعيننا إلى النهاية. ولنعدد معالم الطريق لنرى كيف أعاننا الرَّب وخلّصنا مِن يد المهلك. ولنتذكر مراحمه، والدموع التي مسحها، والآلام التي

سكنَّها، والهموم التي أزالها، والمخاوف التي بددها، والحاجات التي سدها، والبرَكَات التي أَنْعَمَ بها، وبذلك نشدّد نفوسَنا لمواجهة ما قد يعترضنا في مراحل الطريق الباقية.

لا بدّ مِن أن نتوقع المزيد مِن الحيرة والارتباك في الصراع المقبل، ولكنّنا، إذ نعيد النّظر إلى ما قد مضى وما سيأتي، نقول «إِلَى هُنَا أَعَانَنَا الرَّبُّ» «وَلْتُعَادِلْ قُوَّتُكَ امْتِدَادَ أَيَّامِكَ» (ترجمة تفسيرية) تثنية ٣٣: ٢٥. إنَّ الامتحان لن يزيد صعوبة على ما نستطيع احتماله بالقوة الممنوحة. فلنعمل إذاً حيث نجد العمل متيقنين مِن الانتصار بالذي يقوينا.

عَمَّا قريب سيفتح الْمَسِيحُ أبوابَ السّماء على مصراعيها لاستقبال أولاد اللهِ، فيطرَبون لسماع البَرَكَة التي يردِّدها ربّ المجد في قوله «تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» متى ٢٥: ٣٤.

حينئذ يقف يَسُوعُ أمام المفديين مرحّبا بهم إلى المنزل الذي يعدّه لهم الآن حيث يكونون في صحبة الذين انتصروا على الشّيطان وصاغوا بنعمة اللهِ أخلاقاً كاملة. ولا يكون هناك الزناة والكذبة ولا عَبَدة الأوثان، وأما كل ما كان

قد اعترى المفديين من نقص أو ميل إلى الشرّ فيزول عنهم بدم الْمَسِيحِ. ويحلّ عليهم بهاءُ مَجْدِه الذي يفوق لمعان الشَّمس. ويضيء فيهم الجمال الأدبي، كمال صفاته تعالى، الذي تفوق قيمته، ذلك مِن المجد الخارجي. إنهم بلا عيب قدام عرش اللهِ، يشاطرون الملائكة بنبلهم وامتيازاتهم.

فبالنسبة إلى هذا الميراث المجيد «مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» متى ١٦: ٢٦. قد يكون فقيراً ومع ذلك يملك في نفسه غنى وشرفاً لا يملكهما العالم كله. إنّ النَّفْسَ المفدّية المُطهّرة من الخطية، بكل قواها النَّبِيّلة المكرسة لخدمة اللهِ لهي أثمن من الجواهر. وهناك فرح في السَّماء في حضرة اللهِ والملائكة القديسين بنفس واحدة تنال الخلاص، فرح يعبَّر عنه بتهليلات النَّصر المُقَدَّسِ وأغانيه.